

أعلام
بهرزون

هَنَيبَعْلُ



هنيعل

أعلام مبرزون
من الشرق والغرب

هنا يعمل

٢٤٦ - ١٨٢ - ٢٠٠

دار الشرق العربي
بيروت شارع سحرية. بناية درويش

سلسلة في حشر ملقات نعرى سيدة موجزة
لأجله من مبرزين من الشرق والغرب

- ١- الإبن كندرا الأكبر
- ٢- هنيبعل
- ٣- أبو العلاء المعري
- ٤- ابن بطوطة
- ٥- ابن خلدون
- ٦- كريستوف كولومبوس
- ٧- ولیم شكسبير
- ٨- نابوليون بوناپرت
- ٩- ليون تولستوي
- ١٠- المهاتما غاندي

كتبها وأشرف على إصدارها
الدكتور ضاحي الأشتري

سلسلة صغيرة تغنيك عن مكتبة كبيرة

مقدمة

ينحدر هنيعل (هانيبال كما تُسميه المصادر الأوربية) بطل قرطاجة العبقري، من أسرة برقة العظيمة، وهي واحدة من أشراف الأسر في مدينة صور السورية التي أسهمت في بناء قرطاجة على الساحل الشمالي من افريقية، وإقامة إمبراطوريتها الكبيرة، التي بسطت سيادتها على حوض البحر الأبيض المتوسط لفترة طويلة من التاريخ القديم، قبل أن تتمكن الجيوش الرومانية المهيمنة عليها من تدميرها وتخريبها وإزالة دولتها وحضارتها من الوجود.

وهنيعل الذي قاد الجيوش القرطاجية عبر أوربة، واجتاز بها فتن الجبال الوعرة في سلسلتَي البيرنة والألب، حتى وصل بها إلى أبواب روما، في حملته الكبرى، هو واحد من الأعلام العاقرة المبرزين، وكبار القادة الفاتحين، والباحثون إلى اليوم يُعدون قيامه بهذه المغامرة المذهلة، ونجاحه مع قتلته وجيوشه ومعداتِه الضخمة في عبور الألب من المعجزات، وقد سبق بذلك قائداً عبقرياً آخر هو نابوليون بوناپرت، بألفي سنة؛ وكان النصر دائماً حليفه في حملته الكبرى، التي استمرت أكثر من خمسة عشر عاماً، ولولا امتناع

مجلس الشيوخ في قرطاجَة عن إمدادِهِ بما طلبَ من مالٍ ورجالٍ في
نهاية الحملة، لاجتِاحَ بطلٍ قرطاجَة عاصمةَ الرومانيين وقضى على
امبراطوريتهم الكبيرة، لكنَّ ضيقَ أفقٍ، وسدَّ الشيوخَ حالَ دونَ
فوزِهِ بالنصرِ الأخيرِ! وقد كَلَّفَ غباؤُهُمَ قَرطاجَة ثمناً غالياً، لا أغلَى
منه، ففي عام ١٤٦ ق. م، بعدَ أقلَّ من نصفِ قرنٍ على تَراجعِ
هنببعل عن أبوابِ روما، تمكَّنتِ الجيوشُ الرومانيةُ من تدميرِ
قَرطاجَة وإزالتها من الوجود!

وفي عرضنا لمراحلِ حياةِ القائِدِ القَرطاجيِّ الأعظم، نتابعُ قصةَ
أعجابه وانتصاراتِهِ إلى الفصلِ الأخيرِ الذي انتهى بمأساتِهِ البُطوليةِ
الْحزينةِ.

الباب الأول

قرطاجة قبل ميلاد

بطلها هنيعل

٨١٤-٢٤٦ ق. م

قبل أكثر من ألفي عام على ميلاد المسيح هاجر
الكنعانيون من الجزيرة العربية، واستوطنوا
الشواطئ الشرقية من حوض البحر الأبيض
المتوسط، وقد عُرفوا فيما بعد بالفينيقيين، وهي
التسمية التي أطلقها الإغريق عليهم فتناقلها عنهم
الرواة والمؤرخون.

كانت مدينه (صور) حاضرة هؤلاء
الكنعانيين، ومنها خرجت امرأة كنعانية جليلة
القدر، اسمها (أليسا ربنت موتن) وأسست مدينة
(قرطاجه) على الساحل الشمالي من إفريقية عام
٨١٤ ق. م وهي المدينة العظيمة التي ستغدو عاصمة

امبراطورية كبيرة تَبْسُطُ سِيادَتَهَا على حَوْضِ البحرِ
الأبيض المتوسطِ طَوَالَ حَقْبَةٍ مَدِيدَةٍ من التاريخ
القديم.

كان والدُ أليَسَارَ ملكَ مدينةِ صُورٍ، وحينَ
أَحَسَّ بِدُنُوِّ أَجَلِهِ أوصى بأنْ تَشْرِكَ ابنتُهُ مع أخيها
بيجمالِيونَ في المُلْكِ، للاستفادةِ من ذَكَائِهَا وَقُوَّةِ
شَخْصِيَّتِهَا وَحُكْمَتِهَا السِّيَاسِيَّةِ وَدَهَائِهَا فِي مُعَالَجَةِ
الأُمُورِ وإدارةِ المملكةِ، ولكنَّ أخاها لم يَرُقْ لَهُ أنْ
تُشَارِكَهُ أختُهُ في المُلْكِ، فراحَ يَتَأَمَّرُ عَلَيْهَا، وَتَمَكَّنَ
من أنْ يَغْتَالَ زَوْجَهَا، فلم تَجِدْ أليَسَارُ بُدًّا من
اعتزالِ السِّيَاسَةِ، على الرغمِ من كَثَرَةِ الأنصارِ من
حَوْلِهَا، ثُمَّ دَبَّرَتْ أَمْرَ هَرَبِهَا من مِينَاءِ صُورٍ، حَامِلَةً
مَعَهَا أَمْوَالَهَا وَجَوَاهِرَهَا، فَأُبْحَرَتْ على أَسطُولٍ كَبِيرٍ،
رَاقِقًا فِيهِ عَدَدٌ ضَخْمٌ مِنَ الأَشْرَافِ الصُّورِيِّينَ،

وكانوا قد أجمعوا على التَّزُوجِ مَعَهَا هَرَباً مِنْ مُضَايِقَةِ
أَخِيهَا لَهُمْ، وَقَدْ عُرِفَتْ أَلِيسَارُ فِي الْغَرْبِ وَبِلَادِ
الْإِغْرِيقِ بِاسْمِ (دِيدُو) أَيِ الْهَارِبَةِ، لِإِفْرَارِهَا مِنْ
مَدِينَةِ صُورٍ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي قَدَّمْنَاهُ!

وَلَكِنَّ بَعْضَ الْبَاحِثِينَ يُؤَكِّدُونَ أَنَّ أَلِيسَارَ
غَادَرَتْ مَدِينَةَ صُورٍ لِتُنْشِئَ عَاصِمَةً جَدِيدَةً بَعِيدَةً
عَنِ الْخَطَرِ الْآشُورِيِّ الْمُنْطَلِقِ مِنْ ضِفَافِ الْفُرَاتِ،
وَتَجْعَلَ مِنْهَا قَاعِدَةً لِحِمَايَةِ الْمَضَايِقِ الْغَرْبِيَّةِ الْقَرِيبَةِ،
وَهِيَ مَضِيقُ مَسِينَا (بَيْنَ صِقْلِيَّةٍ وَإِيطَالِيَّةٍ) وَمَضِيقُ
سَرْدِينِيَا وَكُورْسِيكَا، وَمَضِيقُ أَعْمِدَةٍ مَلَقَرَتْ
(الاسْمَ الْقَدِيمَ لِمَضِيقِ جَبَلِ طَارِقٍ) وَلِهَذَا سَمَّيْتُ
أَلِيسَارَ مَدِينَتَهَا (قَرْتُ حَدَشْتُ) أَيِ الْمَدِينَةِ أَوْ
العَاصِمَةَ الْجَدِيدَةَ، وَقَدْ حَرَّفَ الْغَرِثِيُّونَ اسْمَهَا
الْكَنْعَانِيَّ، وَجَعَلُوهُ (قَرطَاجَة).

غادرت أليساُر مدينة صور، وعند مُرورها
 بقُبرص استقبلها السُكَّانُ بِحفاوةٍ وحماسيةٍ،
 فاختارت منهم ثمانينَ عذراءَ من قُتَيَّاتِ الجزيرة،
 ونقلتهُنَّ إلى سُفُنِها، لِتُرَوِّجَهن من الرجالِ المُرافقينَ
 لها، وتجعلَ من هذه الأُسَرِ نواةَ الشعبِ الذي سيُقيمُ
 في مدينتِها الجديدة، ثم تابعتْ إبحارَها نحوَ الغربِ،
 حتى بلغتْ ساحلَ إفريقيةَ الشماليِّ، فألقتْ مَراسِيها
 عندَ خليجِ ذي مَوقِجٍ دِفاعيٍّ مُمتاز، ونزلتْ إلى البرِّ،
 فاستقبلها السُكَّانُ الأَصليُّونَ بأهازيجِ الشُّرورِ،
 ورحَّبوا بِمَقَدِّمِها، وكان الكِنَعائِيُّونَ قد سَبَقُوها إلى
 إنشاءِ مدينتينِ في تلكَ النَّواحي، وهما حَضْروميثُ
 وعَتِيقُ، ولكنَّ مدينةَ أليساُر ستُصبحُ بِمَوقِعِها المنيعِ
 وعَظَمَةِ مَبانِياها أَعْظَمَ مَدينَةٍ في شَماليِّ أَفريقيةِ،
 وستُغدو عاصمةً لامبراطوريةٍ عَظيمةٍ مُزدهِرةٍ.

ومَرَّتِ القُرُونُ وقرطاجُهُ تَزْدَادُ ازدهاراً واتَّسَعاً،
 وقد ظَلَّتْ عَلاقَتُها مَعَ صُورٍ طِيبَةً، وَكانَتْ تَعْتَبَرُها
 بِمَثابَةِ الوَطَنِ الاثْمَ لها وَلِلنازِحِينَ الكَنعانيينِ
 القاطنينَ فيها، وَعَندما دَمَّرَ الاسكندرُ المَقْدُونِيُّ
 مَدينَةَ صُورٍ عام ٣٣٢ ق. م انتقلتْ سِيادةُ البَحْرِ
 مَناها إلى قَرطاجَةٍ، فأصبحتِ المَركَزَ التِجارِيَّ الأَكْبَرَ
 لِلبحرِ الأَبْيَضِ المُتوسِّطِ، وَلَها لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مَن وُقوعِ
 الصِّدامِ بَينَها وَبَينَ رَوما، إِذِ يُحاوِلُ كُلٌّ مَن
 القَرطاجيينَ وَالرَومانِ الانْفِرادَ بِالسَّيْطَرَةِ عَلى
 البِحارِ وَالْمَضايقِ وَالجُزُرِ، لِتَأْمِينَ مَصالِحِهِم
 السِّياسِيَّةِ وَالاِقْتِصادِيَّةِ، وَيَذْكُرُ المؤرِّخونَ ثَلاثَ
 حُرُوبٍ كُبرى وَقَعَتْ بَينَ الطَرَفينِ: حَربانِ مَناها
 وَقَعَتَا في القَرْنِ الثالِثِ قَبْلَ المِيلادِ، اَمْتَدَّتْ أَوَلاها
 بَينَ عامَي (٢٦٤-٢٤١ ق. م) وَشارَكَ في أَوَakhirِها

البطلُ القرطاجيُّ هَمَلقَارُ بركة والدُ بطلِنا العظيمِ
هَنِيْبَعْلَ بِنْتَصِيْبٍ كبيرٍ، وامتدَّتِ الحربُ الثانيةُ بينَ
عاميَّ (٢٠١-٢١٩ ق. م) وهي التي خاضَ هَنِيْبَعْلُ
معارِكها الضارية؛ أما الحربُ الثالثةُ فقد وَقَعَتْ في
القرنِ الثاني قبلَ الميلادِ وامتدَّت بينَ عامي
(١٤٦-١٤٩ ق. م) وهي الحربُ الأخيرةُ التي
انتهت بِسُقُوطِ قَرْطَاجَةٍ وتدميرِها.

ونحنُ في عَرَضِنا لسيرةِ البطلِ العبقريِّ هَنِيْبَعْلَ
سنتابعُ المعاركَ التي خاضها خِلالَ الحربِ الثانيةِ،
وأحرزَ فيها انتصاراته المذهلةَ على الرُّومانِ، أما
أحداثُ الحربِ الأولى فَيَكْفِينا مِنْها ما لوالدِ هَنِيْبَعْلَ
دَوْرٌ فيه، وذلك خِلالَ السنواتِ السَّبعِ الأخيرةِ من
هذه الحربِ، التي جعلتْ هَمَلقَارَ بركةَ يَحْمِلُ الكُرَّةَ
لِلرُّومانِ، ويتحرَّقُ شوقاً للانتقامِ منهم، ويُنْشِئُ

ابنه على بُغْضِ رُوما، وَبُهِتَهُ لِتَحْقِيقِ حُلْمِهِ فِي
سَخِّقِهَا وَتَدْمِيرِهَا.

وأما الحربُ الثالثةُ فلا صلةَ لِكتابنا بأحداثها،
إذ وقعت بعد ثُلُثِ قَرْنٍ من وفاة هَنِيْبَعْل، وبانتهائها
تَمَّ لِرُوما تدميرُ قَرطاجَة وإزالتها من الوجودِ،
بِضْرَاوَةٍ وَخَشِيَّةٍ لا مثيلَ لها في التاريخ!

كان في جُمْلَةِ الأَشْرَافِ الصُّورِيِّينَ الذين
هاجَروا مع أليَسَارَ من صُورٍ أُسرَهُ (برقَة) الشهيرةُ
التي أنجَبَتْ عدداً من القادةِ والفَاحِشِينَ المَوْهُوبِينَ،
وَأَسْهَمَتْ في بَناءِ قَرطَاجَة وَعَظَمَتِهَا، ومن أَخْفَادِ
هذه الأُسرةِ العَظيمةِ في القرنِ الثالثِ قَبلَ المِيلادِ
قائِذُ عَبريٍّ كَبيرٍ هو (هَمَلقَارُ برقَة) والدُّ بَطَلِ
قَرطَاجَة العَبريِّ الأَكْبَرِ هَنِيْبَعْل، ويبدو أَنَّ
مَوهبةَ هَمَلقَارِ العَسكريةِ تَفَتَّحتْ في سِنِّ مُبَكِّرةٍ
في المَعارِكِ التي خاضَهَا جُنْدِيّاً في صِغَلِيَّة، وفي
الحَمَلاتِ التَّأديبيةِ التي كانت قَرطَاجَة تُجرِّدُهَا
على العُصاةِ المُتَمَرِّدينَ من القبائلِ الإفريقيةِ،

فَلَمَّا بَلَغَ رُتَبَةَ الْقِيَادَةِ ظَهَرَتْ عِبْقَرِيَّتُهُ الْعَسْكَرِيَّةُ فِي
خَبْرَتِهِ بِفُنُونِ الْحَرْبِ، وَذَكَائِهِ الْمُتَوَقَّدِ وَبِرَاءَتِهِ
الْمُثَلَّى فِي التَّخْطِيطِ لِلْمَعَارِكِ، وَقَدْ عُرِفَ دَائِمًا
بِشَجَاعِيَّتِهِ وَبَسَالَتِهِ وَجُرْأَتِهِ وَإِقْدَامِهِ، وَخَوْضِهِ غَمَرَاتِ
الْقِتَالِ فِي مُقَدِّمَةِ الصُّفُوفِ مَعَ جُنْدِهِ، وَيَتَحَدَّثُ
الْمُؤَرِّخُونَ عَنْ قُدْرَتِهِ عَلَى فَهْمِ نَفْسِيَّةِ الْجُنُودِ وَتَقْوِيَةِ
مَعْنَوِيَّاتِهِمْ وَبَثِّ الْحِمَاسَةِ وَرُوحِ التَّضْحِيَةِ فِي
قُلُوبِهِمْ.

وَكَانَتِ الْحَرْبُ الْأُولَى بَيْنَ قَرْطَاجَةِ وَرُومَا
مُسْتَمِرَّةً فِي الْبَحْرِ مُنْذُ عَامِ ٢٦٤ ق. م، وَهِيَ الْحَرْبُ
الَّتِي امْتَدَّتْ بَيْنَهُمَا ثَلَاثَةَ وَعَشْرِينَ عَامًا، وَجَرَتْ فِيهَا
مَعَارِكُ طَاحِنَةٌ بَيْنَ الطَّرْفَيْنِ، إِذْ يُحَاوَلُ كُلُّ مَنِهَا أَنْ
يَتَفَرَّدَ بِالسِّيَادَةِ عَلَى الْمَلَاخَةِ الْبَحْرِيَّةِ، وَالسَّيْطَرَةِ عَلَى
الْمَضَاقِقِ وَالْجُزُرِ، لِتَأْمِينَ مَصَالِحِهِ السِّيَاسِيَّةِ

والاقتصادية، كما قَدَّمنا، وكان هَمَلَقَارُ في الأعوام
الأخيرة من تلك الحَرْبِ الضارية على رأسِ
الأسطولِ القَرطاجيِّ، عندما وَجَّهَتْ روما حملةً
بحريةً إلى قَرطاجَة، فتصدَّى هَمَلَقَارُ لِلحملةِ
ليقطعَ عليها الطريقَ، والتقى الأسطولانِ في أكبرِ
معركةٍ بحريةٍ في ذلك التاريخ القديم، واستبسلَ
الطرفانِ في القتالِ استبسالاً مُستميّاً، وانتهتِ
المعركةُ بالسُّفُنِ المُحطَّمةِ والعزيمةِ المُنْهارةِ في كلِّ
طَرِفٍ، ورجَعَ الأسطولُ الرومانيُّ إلى ميناءِ مَسِينا
لإصلاحِ السُّفُنِ ومُداواةِ الجُرْحَى، وانقاذِ ما يُمكنُ
إنقاذه، واغتَنَمَتْ قَرطاجَةُ الفرصةَ المُواتيةَ لِتَعْرِضَ
على رُوما عَقْدَ الصُّلْحِ بينهما، ولكنَّ مجلسَ
شيوخِها رفضَ العَرَضَ، وظنَّ تقديمه دليلاً على
ضَعْفِ قَرطاجَة، وأصرَّ على مُوالاةِ الحربِ حتى

إحراز النصر النهائي!

وهكذا انطلق الأسطول الروماني بعد فترة قصيرة إلى الشواطئ الأفريقية ثانية، دون أن يعترض طريقه أحد، لأن أسطول قرطاجة كان قد تجمّع في مينائها للدفاع عن المدينة من البحر، ونزل الرومان إلى الأرض الأفريقية قرب مدينة (كلوبيا)، وانصرف الجنود إلى التّهبّ والسلب وأسر المدينيين ونقلهم إلى السفن، وكان على رأس الحملة القنصل (ريغولوس)، الذي دأبته الشتاء ففضى أيامه في انتظار حلول الربيع، وعند ذلك زحف بالجيش الروماني حتى بلغ مدينة (أديس) على مسافة خمسة وعشرين كيلومتراً من مدينة (تونس) وهي آخر حصن دفاعي على الطريق المؤدية إلى قرطاجة: وفي معركة (أديس) ارتكب

القرطاجيون أخطاء فادحة يحصر قواتهم في المرتفعات الوعرة، بدلاً من إطلاقها في السهول، للانقضاض على الجيش الروماني وتمزيقه، وهكذا أصبح (ريغولوس) يهدد قرطاجة تهديداً مباشراً.

غير أن هذا القنصل الروماني كان يخشى أن تطول المعركة، وأن تنتهي مدة ولايته قبل أن يحصّد ثمار أمجادِهِ، فقدّم للقرطاجيين عرضاً بالصلح، وقبلت قرطاجة عرضه، وأرسلت وفداً للتفاوض عليه، لأنها كانت يومذاك مهتدة بحركات القبائل البدوية الثائرة من حولها، ولكنها عندما وجدت شروط الصلح قاسية، ردت على (ريغولوس) بقولها: «هذه شروط قاندي مُنتصر؛ وأنت لم تنتصر بعد!» وتابعت قرطاجة استعدادها للصمود والدفاع.

وهكذا زَحَفَ القرطاجيونَ مِنَ المُرْتَفَعَاتِ
 الوَعْرَةِ إِلَى السَّهولِ عِنْدَ مَدِينَةِ (تُونُس)، فِي مُوَاجِهَةٍ
 حَاسِمَةٍ لِلجَيْشِ الرُّومَانِيِّ، وَبَدَأَتِ المَعْرَكَةُ بِهُجُومِ
 صَاعِقٍ شَتَّتُهُ الْفَيْلَةُ عَلَى قَلْبِ الجَيْشِ الرُّومَانِيِّ
 فَسَحَقَتْهُ سَحَقًا، وَقَامَ الْفُرْسَانُ الْقُرطَاجِيُّونَ بِحَرَكَةِ
 التَّفَافِ سَرِيعَةٍ طَوَّقُوا بِهَا جَنَاحَيْ ذَلِكَ الجَيْشِ،
 وَأَنْجَلَّتِ المَعْرَكَةُ عَنِ إبَادَةِ مُعْظَمِ الرُّومَانِيِّينَ، إِذْ
 هَلَكَ مِنْهُمْ فِي سَاحَةِ المَيْدَانِ ثَلَاثُونَ أَلْفًا، وَأَسْرَ
 الْقُرطَاجِيُّونَ خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفًا، وَتَمَكَّنَ أَلْفَانِ مِنَ الْفِرَارِ
 بِجُلُودِهِمْ مَذْعُورِينَ، وَكَانَتْ كَارِثَةً كُبْرَى عَلَى
 رُومَا؛ أَمَّا الْأَسْطُولُ الرُّومَانِيُّ الَّذِي كَانَ يُحَاصِرُ
 قُرطَاجَةَ فَقَدْ انْسَحَبَ عَلَى عَجَلٍ، لِانْقِاذِ النَاجِينَ
 الْهَارِبِينَ، وَأَقْلَعَ بِهِمْ وَبِالْأَسْلَابِ الَّتِي حُمِلَتْ إِلَى
 السُّفُنِ مِنْ قَبْلُ، إِلَى إِيطَالِيَةِ!

غير أنَّ كارثة الرومان لم تكتمل فصولها، فعند مرور الأسطول قُرب ساحل صِقِلِّيَّة، عند كامارين، تعرَّضت سُفُنُه لِمَوْجَةٍ من الزَّوابع والأعاصير، ففَرِقَ أَكْثَرُهَا، بِمَا كَانَتْ تَحْمِلُ من الأسلاب والجُنُود، وبذلك انتهت تلك الحملة المشؤمة التي أَعَدَّتْهَا رُوما لِتَدْمِيرِ قَرطاجَة، وقد شَمَلَتِ الكارثة جيشها في البرِّ والبحر، واستعادت قَرطاجَة تَفُوقَهَا الحربيَّ على خَصْمِهَا وَمَنَافِسِهَا الأَكْبَرِ.

وكان على قَرطاجَة بعد ذلك أن تُوايِلَ قَهَرَ عدُوِّهَا، فَتَوَالِي الحرب في صِقِلِّيَّة وإيطالية، ولكنها لم تشأ مُتَابَعَةَ القتالِ، لأن بعض القبائل الإفريقية انتهزت الفُرصة السانحة فأعلنت الثَّوْرَةَ، مما أَضْطَرَّ قَرطاجَة إلى استدعاء بعض قُوَّاتِهَا من صِقِلِّيَّة لِإِخْضَاعِ العُصَاةِ الثَّائِرِينَ.

ظَلَّت رُومَا بَعْدَ إِخْفَاقِ حَمَلَتِهَا عَلَى إِفْرِيقِيَّةَ
وَحَسَارَةِ الْقِسْمِ الْأَكْبَرِ مِنْ أُسْطُولِهَا الْحَرْبِيِّ
وَالتَّجَارِيِّ فِي كَارِثَةِ كَامَارِينْ، تُؤَالِي الْإِسْتِعْدَادَ
بِحِمَاسَةٍ لِلْأَخْذِ بِالنَّارِ وَأَسْتِعَادَةِ مَا ضَاعَ مِنْ هَيْبَتِهَا
وَكِرَامَتِهَا، وَقَدْ أَخَذَتْ تَبْنِي أُسْطُولًا جَدِيدًا يَضُمُّ
مِائَتَيْنِ وَعِشْرِينَ سَفِينَةً، وَفِي عَامِ ٢٥٧ ق. م كَانَ
هَذَا الْأُسْطُولُ يَجُوبُ مِائَةَ صِقْلِيَّةَ، وَيُحَاصِرُ الْمَوَانِيءَ
الْقُرْطَاجِيَّةَ فِيهَا، وَيَسُنُّ عَلَيْهَا الْغَارَاتِ الْمُتَوَالِيَةَ، إِلَى
أَنْ تَسْتَسْلِمَ لَهُ، وَبَعْدَ سُقُوطِ مَدِينَةِ بَانُورْمِ
وَإِحْتِلَالِهَا، تَجْمَعُ الْأُسْطُولُ الرُّومَانِيُّ فِي مِائِهَا، ثُمَّ
تَوَجَّهَ مِنْهَا عَائِدًا إِلَى إِيطَالِيَّةَ، فَدَاهَمَتْهُ عَاصِفَةٌ هَوَّجَاءَ

أغرقت ما لا يُقَلُّ عن مائة وخمسين من سُفِينِهِ
الحربية، وعدداً كبيراً من السُّفُنِ التجارية المُثَقَّلَةِ
بِحُمُولَتِهَا من الأُسرى والأَسلابِ!

كارثةٌ بحريةٌ ثانيةٌ تُصِيبُ رُوماً، أعقبَها فترةٌ
طويلةٌ من الهدوء، إلى عام ٢٥٠ ق. م حين
عاودت روما استعدادَها للقتال، لِطَرْدِ
الْقَرطاجيين من صِيقَلِيَّة، وإخراجهم من
لِيلِيُوم، وهي أَمْنَعُ مَدِينَةٍ بَقِيَتْ في أيديهم هناك.
ولكنَّ الكوارثَ تَتَوَالى على القُوَّاتِ الرومانية بَرّاً
وبَحْراً، ويظهرُ لِلْعِيَانِ أَنَّ النصرَ سَيَكُونُ في نهايةِ
المَطَافِ لِقَرطاجَةٍ، وتَسْتَعِدُّ روما لِسَحْبِ قُوَّاتِهَا من
جزيرةِ صِيقَلِيَّة، ونقلِها إلى إيطاليا لِلدِّفاعِ عن نَفْسِهَا
هناك! غيرَ أَنَّ قَرطاجَةَ تُنْسِكُ عن آسِغْلالِ
نَتِيجَةِ انتصاراتِها، وتُحْجِمْ عن مُتَابَعَةِ الحَرْبِ،

وقد أصبح بإمكانها أن تُوجَّه الضربة القاضية لِسَحْقِ
عَدُوِّها وتدميرِه!

لماذا هذا الخطأ الفادح الخطير؟

هنا تتعلَّدُ الإجاباتُ: فَمِنْ قَائِلٍ إِنَّ قَرطاجَةَ
كانت مشغولة حينذاك بِقَمْعِ الفِتَنِ بَيْنَ القبائلِ
الإفريقيةِ الثائرة، وَمِنْ قَائِلٍ: إِنَّها تَعَبَتْ مِنْ كَثْرَةِ
الحُرُوبِ وأصبحت تَتَلَهَّفُ على إنْهاءِ المعاركِ على
أَيَّةِ صُورةٍ كانت! والحقيقةُ أَنَّ جهازَ الحُكْمِ في
قَرطاجَةَ كان يَضُمُّ أَكْثَرِيَّةً مِنَ التُّجَّارِ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ
إلى سِياسَةِ قَرطاجَةَ ومُستقبلِها بِمِنْظارِ مَصالِحِهِم
الاقتصادية، وكانَ يَتَزَعَّمُ حِزْبُ التُّجَّارِ حَنُونُ،
وكانَ يدعو إلى التفاهمِ السِّلْمِيِّ مع روماء؛ أَمَّا
دعاةُ الحِزْبِ مِنْ رجالِ السِياسَةِ في قَرطاجَةَ فكانوا
يَلْتَفِتُونَ حَوْلَ هَمْلِقَارِ بركة والدِ هَنِيْبَعْلَ، ويُحاولُونَ أنْ

يُبيِّنُوا لِمُعَارَضِهِمْ أَنَّ بقاء روما هو الخطر الأكبر
على قرطاجة، لأنَّ الرومان مُصِرُّونَ على رَفْضِ كُلِّ
تفاهيم، وعازمون على مُتابعةِ الحربِ حتى النهاية.

عندما تَبَيَّنَ لِقَرطَاجَة أن روما مُصِرَّةٌ على
مُتابعةِ الحرب، أرسلتْ إلى صِقَلِيَّة أسطولاً حربياً
وجَيْشاً جديداً بقيادة هَمَلقار بركة، لإفهام رُوما أن
قرطاجة ما تزالُ مُستعدة لِمُواصلةِ الحرب، وغادرَ
هملقارُ قرطاجةَ عام ٢٤٧ ق. م مُخلفاً فيها زوجته
الحامل، وأبنتَيْنِ صغيرَتَيْنِ كُبراهُما في العاشرةِ
والثانيةِ في الثامنةِ من العُمُر، وباستلام هَمَلقارَ
لِلقيادةِ العامَّةِ بدأتْ عبقريَّةُ الحربيَّةِ تتكشَّفُ
لِلعيانِ، وقد أثبتَ أَنه قائدٌ كبيرٌ يفهمُ نَفْسِيَّةَ الجُنودِ
ويعرفُ كيف يُقَوِّي مَعنوياتِهِمْ وَيَقوِّدُهُمْ إلى النصرِ،
واعترفَ المُوَرِّخُونَ له بأنه قائدٌ عبقريٌّ عظيمٌ له على

جُنُودِهِ سَيْطَرَةً مَعْنَوِيَّةً لَا تُقَاوَمُ، وَقَدْ بَدَأَ حَمَلَتَهُ عَلَى رُومًا بِغَزْوَةٍ بَحْرِيَّةٍ خَاطِفَةٍ طَافَ فِيهَا عَلَى الشَّوْاطِيءِ الْإِيطَالِيَّةِ، فَتَهَبَ مُدْنَهَا وَبَثَّ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِ سُكَّانِهَا ثُمَّ عَادَ إِلَى صِقِلِّيَّةَ، وَاسْتَوْلَى عَلَى جَبَلِ (أَرِيكْس) الْقَرِيبِ مِنَ الشَّاطِيءِ، وَعَسَكَرَ فِيهِ عَلَى مَسَافَةِ أَلْفِ مِتْرٍ مِنَ الْمُعْسَكَرَاتِ الرُّومَانِيَّةِ، وَظَلَّ أَسْطُولُهُ مُرَابِطاً فِي مِيَاهِ (بَانُورْم) عَلَى مَقْرِبَةٍ مِنْ جَبَلِ (أَرِيكْس) ! وَعَجَزَتِ الْقُوَّاتُ الرُّومَانِيَّةُ عَنْ فَهْرِ هَمْلِقَارَ أَوْ التَّصَدِّي لَهُ طَوَالَ خَمْسِ سَنَوَاتٍ، وَهُوَ يَزْدَادُ قُوَّةً يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، إِلَى أَنْ أَدْرَكَ الرُّومَانُ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الْقِيَامِ بِعَمَلٍ حَاسِمٍ، وَعَمِلُوا عَلَى انْشَاءِ أَسْطُولٍ جَدِيدٍ، أَصْبَحَ عَلَى أَتَمِّ اسْتِعْدَادٍ لِلْعَمَلِ فِي بَدَايَةِ عَامِ ٢٤٢ ق. م بِقِيَادَةِ الْقُنْصَلِ (لُوتَاسِيُوسَ)، وَقَدْ تَمَكَّنَ مِنْ تَحْقِيقِ نَصْرِ حَاسِمٍ فِي

مياه (ايغوس)، وهي إحدى جُزُر (إيغات)، وأسفرتِ المعركةُ عن هزيمةِ القرطاجيين وقد خسروا أكثرَ من نصفِ سُفنِ أسطولهم، ولادَّت السفُنُ الناجيةُ بالفرارِ، وَيَأْتِي دَحَارِ الأُسْطُولِ القرطاجيِّ في معركةِ (ايغوس) انتهتِ الحربُ الأولى بين قرطاجةَ وروما، لأنَّ حزبَ التجارِ في قرطاجةَ أبى أنْ يُوافقَ على مُواصلةِ القتالِ بعدَ تلكَ الخسارةِ، وكانَ هو الحزبُ الحاكمُ يومذاك، وخيَّرَ هملقارُ بين أن يَعتدَّ الصُّلحَ باسمِ قرطاجةَ مهما تَكُنْ شروطُ روما، أو أن يُواصلَ الحربَ وحدَهُ، على مسؤوليته دونَ اعتمادٍ على أيِّ موردٍ من قرطاجةَ: سواء أكانَ بالمالِ أم بالرجالِ أم بالعتادِ والموادِّ الغذائية!

وهكذا أُبرِمتْ مُعَاهِدَةُ الصُّلحِ بينَ الدولتين، وأخذتِ القُوَّاتُ القرطاجيةُ تَتَجَمَّعُ في (ليليبيوم)

للجلاء عن صِقلِيَّة، حَسَبَ بُنُودِ المُعَاهِدَةِ،
وَاسْتَقَالَ هَمَلِقَارُ مِنَ الْقِيَادَةِ وَعَادَ إِلَى قَرطَاجَةِ،
عَازِماً عَلَى اعْتِزَالِ السِّيَاسَةِ وَالانْسِحَابِ مِنَ الْحَيَاةِ
الْعَامَّةِ، وَالْأَسَى عَلَى هَزِيمَةِ قَرطَاجَةِ فِي صِقلِيَّةِ يَمَلُّ
نَفْسَهُ حُزْناً وَمَرَارَةً.

الباب الثاني

طفولة هنيعل

ونشأته العسكرية وتكوينه

٢٤٦-٢٢١ ق. م

عَادَ هَمْلِقَارُ بَرْقَةَ إِلَى قَرْطَاجَةٍ لِيُوجِبَ فِيهَا إِتِهَامَ
 خُصُومِهِ لَهُ بِالتَّأَمُّرِ عَلَى الدَّوْلَةِ لِقَلْبِ نِظَامِ الْحُكْمِ،
 وَبِالطُّمُوحِ إِلَى السُّلْطَةِ الدِّكْتَاتُورِيَّةِ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ
 يَسْتَطِيعُوا إِثْبَاتَ التُّهْمَةِ عَلَيْهِ، إِلَّا أَنَّ آلَامَ نَفْسِهِ
 الْكَبِيرَةِ لِلْهَزِيمَةِ وَجَلَاءِ الْجُيُوشِ الْقَرْطَاجِيَّةِ عَنْ
 صِيقَلِيَّةٍ كَانَتْ تُثِيرُ فِي نَفْسِهِ أَهْلَامًا لِلثَّارِ مِنَ الرُّومَانِ
 وَالْإِنْتِقَامِ مِنْهُمْ، وَلَمْ يَجِدْ بُدًّا أَمَامَ إِضْرَارِ خُصُومِهِ
 مَنْ إِعْتَزَلَ السِّيَاسَةَ وَالْإِنْسِحَابِ مِنَ الْحَيَاةِ الْعَامَّةِ،
 وَالْإِقْتِصَارِ عَلَى الْعِنَايَةِ بِأَسْرَتِهِ الَّتِي غَابَ عَنْهَا طَوِيلًا!
 كَانَتْ زَوْجَتُهُ قَدْ وَلَدَتْ لَهُ بَعْدَ سَفَرِهِ إِلَى صِيقَلِيَّةٍ
 بِأَشْهُرٍ طِفْلًا سَمَاهُ هَنِيْبَعْلَ (وَمَعْنَاهُ: حَبِيبُ الْبَعْلِ
 أَوْ عَزِيزُهُ، وَالْبَعْلُ هُوَ إِلَهُ الْمَطَرِ الَّذِي يُخْصِبُ

الأرض) وكان ثالث أبناء أبيه، فقد رُزِقَ هملقارُ
 بركة قبله بِنَتَيْنِ، هما أختا هنيبعل اللتان تكبرانه،
 وهنيبعلُ وُلِدَ عام ٢٤٦ ق. م، ورجع أبوه إلى
 قرطاجة عام ٢٤١ ق. م، وابنه في السادسة
 من عُمره، وقد رُزِقَ بعده ثلاثة أولادٍ هم إخوة
 هنيبعل، وهم على التوالي: أزرُوبعل المولود عام
 ٢٤٠ ق. م، وولدان آخران وُلِدا عام ٢٣٩
 و٢٣٨ ق. م على الأرجح، لأن الأب سيُغادر
 قرطاجة عام ٢٣٧ ق. م ولا يعودُ إليها أبداً!

كانت أم هنيبعل شديدة العناية بطفلها
 الصغير في غياب أبيه، طَوَّالَ السنوات الستَّ
 الأولى من حياته، وكانت تُحدِّثه عن أبيه كثيراً،
 وتَزِرُّ في نفسه بُدُورَ كراهية الامبراطورية
 الرومانية التي تستعبدُ الناسَ وتنهبُ ثرواتِ

بلادهم، ويَروى بعضُ المؤرخين أنَّ أمَّ هَنبِعلَ
 كانت تَضَعُ في فِناء دارِها دُمِيَّةً على صُورَةِ جُنْدِيٍّ
 رُومانيٍّ، مَخْشُوءَةٌ بِالرَّمْلِ، وتَعَلَّمُ ابْنُها الصَّغِيرُ وهو
 في السَّادِسَةِ من عُمرِهِ أن يَشُدَّ قوسَهُ ويرمي بِسَهْمِهِ
 في قلبِ الدُّمِيَّةِ وفي رَقَبَتِها وفي عَيْنِها، وبذلك
 دَرَبَتْ طِفْلَها مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ على البَرَاةِ في
 الرِّمَايةِ، كما عَوَّدَتْهُ أن يركبَ فَرَسَهُ دُونَ سَرَجٍ مُنْذُ
 صَغَرِهِ، ويقودَهُ دُونَ لِحَامٍ، ويضغَطُ بِسَاقِيهِ
 الصَّغِيرَتَيْنِ حَتَّى لَا يَفْقِدَ تَوَازُنَهُ، وهو يَنْطَلِقُ في عَدُوهِ
 يُسَابِقُ الرِّيحَ، وفي يُمْنَاهُ رُمْحُهُ الطَّوِيلُ، وبذلك
 أَفْتَحَ الطِّفْلُ وَقَدْ أَصْبَحَ فَارِساً لَا يُبَارَى في
 فُرُوسِيَّتِهِ، وَلَا مِثْلَ لَهُ في الجُرْأَةِ والإِقْدَامِ، وَيَزْعُمُ
 مُؤَرِّخٌ أَنَّ هَنبِيعَلَ كَانَ لَهُ فَيْلٌ خَاصٌّ بِهِ مُنْذُ
 صَغَرِهِ، وَقَدْ كَبَرَ مَعَهُ، وَكَانَ على خَطٍّ كَبِيرٍ من
 الشَّجَاعَةِ وَالذِّكَاةِ، وَكَانَتْ الْأَفْيَالُ في ذَلِكَ الزَّمَنِ

القديم سلاحاً حَرْبِيّاً مَنِيعاً، وكانت الجيوشُ
تَتَنافَسُ على استخدامِها، لأنَّ جِلْدَها السَّمِيكَ يُقاوِمُ
السَّهَامَ ولا تُؤثِّرُ فِيهِ الرَّماحُ ولا السيوفُ، وهذا الفيلُ
الذي تَرَبَّى ونَشَأَ معَ هَنِيْبِعل هو الذي سَيَكُونُ قائِداً
الأفْئالِ في جَيْشِ هَنِيْبِعل الكَبيرِ، وكانَ لِذِكاثِه
وَائْتِناسِه بِصاحبِه يَأْتِمِرُ بِأَمْرِه وَيُطِيعُه إِطاعَةً كانتْ
تُثيرُ إعْجابَ الناسِ واستغرابَهم.

وقد أَرادَ هَمَلقارُ بَرَقَه إِثْرَ عَوْدَتِه إِلى قَرطاجَةِ أَنْ
يَتَعَوَّدَ ابْنُه الصَّغِيرُ شَطَفَ العَيْشِ وخَشونَةَ الحَيَاةِ،
وَيَتَعَلَّمَ المَزِيدَ مِنَ الفُروسِيَّةِ وَيُجَيِّدَها على يَدِ
الْبَرَبْرِ، وكانوا أَمَهَرَ فُرسانٍ عَرَفَهم العالَمُ القَدِيمُ،
فأَرْسَلَ ابْنَه إِلى البادِيَةِ لِيَعِيشَ مَعَهُم.

وَيَصَوِّرُ الكاتِبُ الفَرَنسِيُّ الرَوائِيُّ فُلوبير طُفولَةَ
هَنِيْبِعل المُدْهَشَةَ في كِتابِه المَشْهُورِ (سَلَمْبُو) فَيُعْطِينا
عَنِ الطِفْلِ مَشْهُداً حافِلاً بالقُوَّةِ والعَظَمَةِ والشَّجاعةِ

المُبَكَّرَةِ الخارقة، وفي رأي فلوير أن هَمَلَقار برقة لم يُرسل ولده إلى البادية لِيُعَلِّمَهُ الفُروسِيَّةَ وحدها، بل لِيُبْعِدَهُ أيضاً عن عُيُونِ الكَهَّانِ، خوفاً مِنْ أَنْ يَقَعَ عليه الاختيارُ لِيَكُونَ قُرْبَاناً لِلآلهَةِ، فقد كان الطفلُ يمتازُ مِنْ لِدَائِهِ جميعاً بالقُوَّةِ والجُرْأَةِ والذكاءِ المُتَوَقِّدِ، وقد سألَ أبوه عنه أحدَ الخَدَمِ الذين عُهِدَ إليهم أَنْ يَشْهَرُوا على سَلَامَةِ الطفلِ ورعايته، فأجاب:

«إِنَّ وَلَدَكَ — يا مولاي — مُذهِشٌ عَجِيبٌ، لا يخافُ الثعابينَ، ولا يَخْشَى الرُّعُودَ، ولا يَهَابُ أَشْبَاحَ اللَّيْلِ، إنه يَزْكُضُ في الصَّحراءِ المُحْرِقَةِ حافِئاً فوقَ صُخُورِ الأوديةِ، كأنَّهُ راعٍ تَعَوَّدَ شظفَ العيسِ! إنه يَخْتَرِعُ فِخاخاً وَيُنْصِبُهَا أَشْرَكا لِلوُحُوشِ الضَّارِيَةِ، ومنذُ حينٍ باغَتْهُ عُقَابُ كاسِرٍ وانْقَضَ عليه، فما ارتعشَ ولا فَرَّ هَارِباً، بل انْتَضَى

خِنْجَرُهُ وَرَاحَ يَطْعُنُ الطَّائِرَ الْجَارِحَ بِقُوَّةٍ حَتَّى قَضَى
عَلَيْهِ، وَوَقَفَ بِاسْمِ الشَّعْرِ مُشْرِقَ الْجَبِينِ، وَخِنْجَرُهُ
يَقْطُرُ دَمًا، وَالْعُقَابُ يَخْتَلِجُ تَحْتَ قَدَمَيْهِ».

لقد كانت عودة هملقار برقة إلى قرطاجة
وأسرته فيها من حظِّ الطفل السَّعيد الذي أصبحَ
يَتَعَمُّ بِرِعايَةِ أَبِيهِ وَتَرْبِيَتِهِ وَإِعْدَادِهِ لِلْمُسْتَقْبَلِ
العَظِيمِ الَّذِي يَنْتَظِرُهُ، وَلَكِنَّ خُصُومَ هَمَلْقَارِ فِي
حِزْبِ التُّجَّارِ ظَلُّوا يُؤَالُونَ الْكَيْدَ لَهُ، حَتَّى بَلَغَ الْأَمْرُ
بِهِمْ إِلَى حَدِّ اتِّهَامِهِ بِالْخِيَانَةِ الْعُظْمَى، وَأَصْبَحَ الْقَائِدُ
الْكَبِيرُ مُهَدِّدًا بِالْمُثُولِ أَمَامَ الْقَضَاءِ، لَوْلَا أَنْدِلَاغُ
ثَوْرَةِ الْمُتَرْتِزَةِ وَإِحْسَاسُ قَرطَاجَةِ بِحَاجَتِهَا إِلَى
عَبْقَرِيَّةِ هَمَلْقَارِ عِنْدَمَا دَاهَمَهَا الْخَطَرُ، فَاسْتَدْعَتْهُ
لِلْقَضَاءِ عَلَى الثَّوْرَةِ، وَبِذَلِكَ وَضَعَتْ حَدًّا لِلْمُؤَامَرَةِ
الَّتِي كَانَ أَعْدَاؤُهُ يَحُوكُونَهَا ضِدَّهُ.

كَانَ الْمُتَرْقَةُ الثَّائِرُونَ هُمْ جُنُودَ هَمَلْقَارِ بَرَقَةِ
الَّذِينَ رَابَطُوا فَوْقَ جَبَلِ أَرِيَكْسَ فِي صِقْلِيَّةَ بِقِيَادَتِهِ
طَوَالَ سِتِّ سَنَوَاتٍ، وَهُمْ جُنُودٌ بِوَاسِلُ كَانَ هَمَلْقَارُ
يُغْرِقُهُمْ بِالْمُكَافَاتِ السَّخِيَّةِ لِيُضَاعِفُوا الْحِمِيَّةَ
وَالْأَقْدَامَ فِي صِرَاعِهِمْ لِلرُّومَانِيِّينَ هُنَاكَ، فَلَمَّا أَثْرَمَتِ
الْمُعَاهِدَةُ بَيْنَ الدَّوْلَتَيْنِ الْمُتَصَارِعَتَيْنِ، وَأَسْتَقَالَ
الْقَائِدُ وَعَادَ إِلَى قَرطَاجَةِ، بَقِيَ الْمُتَرْقَةُ يَنْتَظِرُونَ
أَجُورَهُمْ وَمُكَافَاتِهِمْ، وَقَدْ قِيلَ لَهُمْ إِنَّ قَرطَاجَةَ
سَتَدْفَعُ لَهُمْ حُقُوقَهُمْ عِنْدَ عَوْدَتِهِمْ إِلَيْهَا، وَقَدْ أَشْرَفَ
حَاكِمُ لِيلِيُيُومَ (جيسكون) بَعْدَ اسْتِقَالَةِ هَمَلْقَارِ
عَلَى تَرْجِيلِهِمْ عَلَى دَفْعَاتٍ، لِأَنَّ خَزِينَةَ قَرطَاجَةِ لَمْ

تَكُنْ قَادِرَةً عَلَى دَفْعِ حُقُوقِ هَؤُلَاءِ الْجُنُودِ بَعْدَ أَنْ
دَفَعْتَ لِرُومَا مِبَالِغَ طَائِلَةٍ إِثْرَ تَوْقِيعِ الْمُعَاهِدَةِ! وَلِهَذَا
ظَلَّتْ جِيُوشُ الْمُرْتَزَقَةِ الْمُتَدَفِّقَةُ مِنْ صِقَلِيَّةٍ عَلَى
قَرطَاجَةِ لَا تُوَاجَهُ مِنْهَا بِغَيْرِ الْوُعُودِ وَالْمُطَاطَلَةِ
وَالْتَّسْوِيفِ، فَعَمَّ التَّدْمُرُ بَيْنَ الْجُنُودِ الْعَائِدِينَ،
وَأَقَامُوا فِي صَوَاحِي قَرطَاجَةِ، وَهُمْ مِنْ شُعُوبٍ وَأُمَمٍ
مُتَفَرِّقَةٍ، فِي انْتِظَارِ نَيْلِ حُقُوقِهِمْ، فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِمُ
الْانْتِظَارُ وَانصَرَفُوا إِلَى الْقِيَامِ بِأَعْمَالِ السَّرِقَةِ
وَالنَّهْبِ وَالْإِعْتِدَاءِ عَلَى النَّاسِ، وَعَمَّتِ الْفَوْضَى،
فَكَرَّ تُجَّارُ قَرطَاجَةِ فِي وَسِيلَةٍ يُبْعِدُونَ بِهَا شَعَبَ
الْمُرْتَزَقَةِ عَنْ مَدِينَتِهِمْ، فَطَلَبُوا إِلَيْهِمْ أَنْ يَرْحَلُوا إِلَى
(سِيكَ) عَلَى بُعْدِ مَائَةِ وَثَمَانِينَ كِيلُومِتْرًا فِي
الصَّحْرَاءِ، عَنْ قَرطَاجَةِ، لِيَتِمَّ دَفْعُ حُقُوقِهِمْ إِلَيْهِمْ
هُنَاكَ، فَلَمَّا رَحَلُوا ذَهَبَ إِلَيْهِمْ زَعِيمُ التَّجَارِ (حَتُونُ)

لِيُصَارِحَهُم بِأَن صُنِدُوقَ الدَّوْلَةِ عَاجِزٌ عَنِ الدَّفْعِ ،
لَأَنَّ الْأَمْوَالَ الَّتِي كَانَتْ فِيهِ دُفِعَتْ لِرُومَا ، وَفَقَّ بُنُودُ
الْمُعَاهَدَةِ ، وَطَالَبَهُمْ بِتَخْفِيزِ الْمَبَالِغِ الْمُسْتَحَقَّةِ
لِتَسْتَطِيعَ قَرطَاجَةُ تَسْدِيدَهَا !

وَجُنَّ جُنُودُ الْمُرتَزَقَةِ ، وَخَرَجَتْ جَحَافِلُهُمُ الشَّائِرَةُ
مِنْ سِيكَا ، زَاحِفَةً عَلَى قَرطَاجَةَ ، فَلَمَّا بَلَغَتْ مَدِينَةَ
تُونُسَ فِي طَرِيقِهَا ، بَدَأَتْ الْمَفَاوِضَاتُ ، وَوَعَدَ التَّجَارُ
بِالدَّفْعِ ، وَتَمَّ تَعْيِينُ حَكَمٍ لِلْفَضْلِ فِي مَطَالِبِ
الْمُرتَزَقَةِ ، وَاخْتِيرَ حَاكِمٌ لِيلِيبُومَ لَذَلِكَ ، وَلَكِنْ
التَّجَارَ عَادُوا إِلَى الْمُمَاطَلَةِ ، وَلَجَأُوا إِلَى الْحِيلَةِ ،
وَأَرَادُوا أَنْ يَدْفَعُوا لِكِتْلَةِ الْمُرتَزَقَةِ مِنَ الْأُورِيبِينَ ،
وَيُؤَخِّرُوا الدَّفْعَ لِكِتْلَةِ الْإِفْرِيقِيِّينَ وَهِيَ تَضُمُّ
الْأَكْثَرِيَّةَ السَّاحِقَةَ مِنْ أَوْلَئِكَ الْمُرتَزَقَةِ ، وَاكْتَشَفَ
(مَاتُو) وَهُوَ أَحَدُ الْجُنُودِ الْإِفْرِيقِيِّينَ الْأَذْكَاءِ

اللُّعْبَةَ فَفَضَّحَهَا، وَقَادَ جُمُوعَ الثَّائِرِينَ فِي غَضَبِهِ
 عَارِمَةٍ، حَيْثُ قَبَضُوا عَلَى الْحَكَمِ الْمُرْسَلِ لِتَوْزِيعِ
 الْأَمْوَالِ عَلَى الْأُورِيِّينَ، وَحَطَّمُوا الصَّنَادِيقَ الَّتِي
 تَحْوِي تِلْكَ الْأَمْوَالَ، وَأَعْلَنُوا الثَّورَةَ عَلَى قَرطَاجَةَ،
 وَوَجَّهُوا نَدَاءً إِلَى جَمِيعِ الْبُلْدَانِ الْإِفْرِيقِيَّةِ يَدْعُونَهَا فِيهِ
 إِلَى الْإِنْضِمَامِ إِلَى الثَّورَةِ وَالْمُطَالَبَةِ بِالْإِسْتِقْلَالِ،
 وَوَجَدَتْ قَرطَاجَةُ نَفْسَهَا أَمَامَ خَطَرٍ ذَاهِمٍ فِي مَرَحِلَةِ
 مِنْ أَشَقِّ مَرَاكِحِ تَارِيخِهَا، إِذْ كَانَتْ خَارِجَةً لِتَوَّهَا
 مِنْ حَرْبٍ طَوِيلَةٍ وَهَزِيمَةٍ أَثْقَلَتْ كَاهِلَهَا بِالذُّيُونِ
 لِرُومَا، وَهِيَ مُطَالَبَةٌ بِالصُّمُودِ أَمَامَ الْمُتَرْتِقِينَ
 الثَّائِرِينَ، وَتُكْنَنَاتُهَا خَالِيَةٌ مِنَ السَّلَاحِ وَالْعِتَادِ
 وَالْجُنُودِ، وَمُسْتَوْدَعَاتُهَا مُقْفِرَةٌ مِنَ الْمُونِ، وَخَزِينَتُهَا
 فَارِغَةٌ مِنَ الْأَمْوَالِ! وَمَعَ ذَلِكَ فَلَا بُدَّ مِنَ الْقِتَالِ
 وَالتَّصَدِّي لِلثَّائِرِينَ الزَّاجِفِينَ، لِتُدَافِعَ قَرطَاجَةُ عَنْ

أَرْضِهَا وَهِيَ كَيْلُهَا وَقُصُورُهَا وَكَيْانُهَا وَحَيَاةُ سُكَّانِهَا
وَأَمْجَادُهَا الْعَرِيقَةِ، وَهَكَذَا أَعْلَنَ مَجْلِسُ الشُّيُوخِ فِي
قَرْطَاجَةِ التَّجْنِيدِ الْعَامِّ وَعَيَّنَ (حَنُونٌ) فِي مَنْصَبِ
الْقِيَادَةِ الْعُلْيَا، غَيْرَ أَنَّ الثَّائِرِينَ، وَكَانَ قُودُهُمْ قَدْ
خَاضُوا الْمَعَارِكَ فِي صِقْلِيَّةَ بِقِيَادَةِ هَمَلْقَارٍ وَتَعَلَّمُوا عَلَى
يَدَيْهِ الْكَثِيرَ مِنْ فُنُونِ الْحَرْبِ، تَمَكَّنُوا مِنْ تَوْجِيهِ
ضَرَبَاتٍ قَاصِمَةٍ إِلَى جَيْشِ حَنُونٍ، فَازْدَادَ قَلَقُ مَجْلِسِ
الشُّيُوخِ، وَأَدْرَكُوا أَنَّ رَجُلَ السَّاعَةِ الَّذِي يُمَكِّنُهُ
أَنْ يَتَغَلَّبَ عَلَى أَوْلَئِكَ الْجُنُودِ الْمُتَمَرِّسِينَ بِالْقِتَالِ
هُوَ قَائِدُهُمُ الْقَدِيمُ هَمَلْقَارُ، فَوَجَّهُوا إِلَيْهِ النِّدَاءَ،
طَالِبِينَ مَعُونَتَهُ، فَلَبَّى هَمَلْقَارُ النِّدَاءَ، وَخَرَجَ مِنْ
عُزْلَتِهِ لِيَعْمَلَ عَلَى إِنْقَازِ الْوَطَنِ، وَتَوَلَّى قِيَادَةَ جَيْشِ
جَدِيدٍ، مِنْ عَشْرَةِ آلَافٍ مُقَاتِلٍ وَسِتِّينَ فَيْلًا، وَهُوَ
جَيْشٌ صَغِيرٌ، وَلَكِنَّ عِبْقَرِيَّةَ الْقَائِدِ فِي خَطِّهِ

لِلْقَضَاءِ عَلَى ثَوْرَةِ الْمُرتَزِقَةِ كَفَلَتْ لَهُ النَّصْرَ،
مُسْتَعِينًا بِأَمِيرِ أَفْرِيقِيٍّ شُجَاعٍ مَعَ فُرْسَانِهِ الْأَلْفَيْنِ،
وَقَدْ زَوَّجَهُ فِيهَا بَعْدَ وَاحِدَةٍ مِنْ ابْنَتَيْهِ، وَلَمْ يَتِمَّ
الْقَضَاءُ عَلَى الْمُرتَزِقَةِ نَهَائِيًّا إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَدْرَكَتْ
قَرطَاجَةَ أَنَّهُ لَا مَنَاصَ مِنْ جَعْلِ الْقِيَادَةِ الْعُلْيَا لِقَوَاتِهَا
فِي يَدِ وَاحِدٍ مِنَ الْقَائِدَيْنِ: حَنْثُونٌ أَوْ هَمَلْقَارٌ، وَلَمَّا
لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَبْتَ فِي اخْتِيَارِ أَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ
تَرَكْتَ لِلْجَيْشِ أَنْ يَخْتَارَ قَائِدَهُ بِنَفْسِهِ، فَاخْتَارَ
هَمَلْقَارَ بَرْقَةَ الَّذِي وَحَّدَ قُوتَ قَرطَاجَةَ، وَحَاصَرَ
بِهَا جَيْشَ الْمُرتَزِقَةِ الَّذِي كَانَ يُحَاصِرُ مَدِينَةَ
قَرطَاجَةَ، فَاصْبَحَ الثَّائِرُونَ مُحَاصِرِينَ وَمُحَاصَرِينَ فِي
أَنْ مَعًا، فَانْقَطَعَتْ بِذَلِكَ الْمُونُ وَالْإِمْدَادَاتُ عَنْ
الثَّائِرِينَ، فِي حِينٍ أَنَّ قَرطَاجَةَ ظَلَّتْ تَتَمَوَّنُ بِمَا
يَلْزَمُهَا عَنْ طَرِيقِ الْبَحْرِ، وَلَمْ يَجِدِ الْمُرتَزِقَةُ الثَّائِرُونَ

بُدَأَ مِنْ فَكِّ حِصَارِهِمْ وَالانْسِحَابِ، وَلَمْ يَغْتَرِضْ
هَمَلِقَارُ سَبِيلَهُمْ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي وَضْعٍ يُمَكِّنُهُ مِنْ
خَوْضِ مَعْرَكَةٍ فَاصِلَةٍ مَعَهُمْ، وَلَكِنَّ الْفُرْصَةَ السَّانِحَةَ
لِإِسْحَاقِ الثَّوْرَةِ لَمْ تَلَبَثْ أَنْ وَاتَتْهُ بَعْدَ تَضَعِيَّاتٍ
كَثِيرَةٍ، وَبَعْدَ أَنْ تَنَازَلَ حَتُونُ عَنْ كِبَرِيَّاتِهِ، وَتَوَجَّهَ
مَعَ ثَلَاثِينَ مِنْ أَعْضَاءِ مَجْلِسِ الشُّيُوخِ إِلَى مَقَرِّ
هَمَلِقَارٍ، فَاسْتَقْبَلَهُمُ الْقَائِدُ الْعَظِيمُ بِالْتَّرْحِيبِ، وَتَمَّ
الِاتِّفَاقُ عَلَى تَعَاوُنِ الْجَمِيعِ لَانْقَازِ الْوَطَنِ مِنَ
الْخَطَرِ الْجَائِمِ! وَوَقَعَتِ الْمَعْرَكَةُ الْحَاسِمَةُ الَّتِي هَلَكَ
فِيهَا الْقِسْمُ الْأَكْبَرُ مِنَ الثَّائِرِينَ وَاسْتَسَلَمَ الْبَاقُونَ
دُونَ قَيْدٍ أَوْ شَرْطٍ، وَانْتَهَتْ بِذَلِكَ تِلْكَ الْحَرْبُ
الدَّامِيَةُ الَّتِي اسْتَمَرَّتْ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ،
وَوَصَفَهَا الْمُؤَرِّخُونَ بِأَنَّهَا كَانَتْ أَفْظَعَ حَرْبٍ عَرَفَهَا
التَّارِيخُ الْقَدِيمُ، لِمَا تَخَلَّلَهَا مِنْ أَلْوَانِ الْبَطْشِ
وَالْعُنْفِ وَالضَّرَاقَةِ وَالْأَهْوَالِ.

بعد القضاء على ثورة المرتزة استرد هملقار
برقة مكانته الكبيرة في قرطاجة، مُتغلباً بذلك على
حزب التجار، وعلى رأسه حنون، وأصبح الرأي
العالم في جانب هملقار برقة، وكان قد زوّج ابنته
الأخرى إلى أزروتغل صديقه الداهية، وكان لهذا
الصّهر أصدقاؤه الكثيرون في مجلس الشيوخ
بقرطاجة، فاستمالهم إلى جانبه وجعلهم يؤيدون
مشروع هملقار الرامي إلى فتح اسبانية وإنشاء
امبراطورية جديدة فيها، تتأثر من روما وتنتقم
منها، وتحول دون بسط سلطانها على حوض البحر
الأبيض المتوسط. والحق أن والد هنيبعل لم يقطع
 يوماً عن التفكير في طرُق الانتقام من روما،
وعندما أقر مجلس الشيوخ القرطاجي غزو اسبانية

ظَنَّ حَزْبُ التُّجَّارِ أَنَّهُمْ بِإِبْعَادِهِمْ هَمَلْقَارَ بَرْقَةَ عَنْ قَرْطَاجَةَ قَدْ ارْتَاخُوا مِنْهُ، وَأَعْلَنَ زَعِيمُهُمْ حَنُونُ تَأْيِيدَهُ لِمَشْرُوعِ خُضْمِهِ بِقَوْلِهِ «لِيَذْهَبَ هَمَلْقَارُ بَرْقَةَ إِلَى إِسْبَانِيَّةَ، فَهُوَ يُرِيدُ الْحَرْبَ وَلَا يَجِدُ سَعَادَتَهُ إِلَّا فِي الْمَعَارِكِ، فَلْيُحَارِبْ وَلْيَظَلَّ فِي سَاحَاتِ الْقِتَالِ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ، وَلَكِنْ لِيَتَّبِعِدْ عَنْ قَرْطَاجَةَ وَلْيَكُنْ وَحْدَهُ مَسْئُولاً عَنْ أَعْمَالِهِ!»

وهكذا غادرَ هَمَلْقَارُ بَرْقَةَ قَرْطَاجَةَ عَامَ ٢٣٧ ق. م على رأسِ جيشٍ صغيرٍ لفتحِ إسبانيةَ، يُرافقه أزرُوبَعْلُ صِهْرُهُ وَصَدِيقُهُ، وَقَبْلَ أَنْ يَرْكَبَ الْبَحْرَ اسْتَدْعَى هَمَلْقَارُ ابْنَهُ الْبِكْرَ هَنْبِيعِلَ، وَكَانَ قَدْ بَلَغَ التَّاسِعَةَ مِنْ عُمرِهِ، وَقَادَهُ إِلَى الْهَيْكَلِ فِي مَعْبَدِ أَلِيسَارَ، سَيِّدَةِ قَرْطَاجَةَ وَمُؤَسَّسَتِهَا، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُقَسِّمَ بِالْأَمْرِ يَكُونُ فِي حَيَاتِهِ كُلِّهَا صَدِيقاً لِلرُّومَانِ! فَرَفَعَ هَنْبِيعِلُ يَدَهُ وَأَقْسَمَ، بِرُوحِ أَلِيسَارَ أُمِّ قَرْطَاجَةَ،

ذَلِكَ الْقِسْمَ التَّارِيخِيَّ الْعَظِيمَ، فِي سَاعَةٍ حَافِلَةٍ
بِالْجَلَالِ، وَارْتَفَعَ تَرْتِيلُ ابْتِهَالٍ مِنْ أَفْوَاهِ الْكَاهِنَاتِ،
وَهُنَّ يُؤَدِّينَ الطُّقُوسَ التَّقْلِيدِيَّةَ، إِلَى الْقَوَى الْإِلَهِيَّةِ،
أَنْ تَرَعَى الْأَبَ الْقَائِدَ الْعَظِيمَ وَعُلامَهُ الَّذِي نَذَرَ
نَفْسَهُ لِلسَّيْرِ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي خَطَّهَا أَبُوهُ لِلنَّارِ مِنْ
رُومًا.

كَانَ الْجَيْشُ الَّذِي صَحَبَ هَمْلِقَارَ بَرَقَةَ إِلَى
إِسبَانِيَّةٍ لِفَتْحِهَا جَيْشًا صَغِيرًا، وَقَدْ سَارَ بِهِ أَوَّلَ الْأَمْرِ
إِلَى مَضِيْقِ أَعْمَدَةٍ مَلَقَرْتِ (جَبَل طَارِق) ثُمَّ عَبَرَ بِهِ
الْبَحْرَ فَوْقَ أَسْطُولٍ صَغِيرٍ إِلَى إِحْدَى الْمُدُنِ السَّاحِلِيَّةِ
الْإِسبَانِيَّةِ (قَادِش) وَكَانَتْ قَرطاجَةُ تَمْتَلِكُهَا مَعَ
عِدَّةِ مُدُنٍ أُخْرَى عَلَى الشَّاطِئِ الْجَنُوبِيِّ، وَهَنَّاكَ نَزَلَ
هَمْلِقَارُ بِحَمْلَتِهِ لِيَبْدَأَ حَرْبًا طَاحِنَةً ضِدَّ الْقَبَائِلِ الَّتِي
هَبَّتْ لِاعْتِرَاضِ سَبِيلِ الْفَاتِحِ الْقَرطاجِيِّ الْمُغِيرِ عَلَى

أراضيها، وكان هنيعلُ برقة في صُحبة أبيه،
يَشْهَدُ معه المعارك، ويُرافقُ الجنودَ في ساحاتِ
الزَّناجِلِ، ويُوَالِي المِشارَكَةَ في الوقائع، والتمرسَ
بالأعمالِ البطولية، حتى أصبحَ فارساً صُلْبَ العودِ،
يَرْهَبُ خِصْمُهُ جَانِبَهُ، وهو ما يزالُ فتى أَمْرَدَ؛ وقد
تَمَكَّنَ هَمْلِقَارُ برقة من إخضاعِ القبائلِ في معاركِ
ضارية لا رحمةَ فيها، على الرغم من آسِيبَسَالِ سُكَّانِ
البلادِ، بِفَضْلِ عِبْقَرِيَّةِ القَائِدِ القَرْطَاجِيِّ وَجُرْأَتِهِ
وَبَرَاعَتِهِ في تخطيطِ عملياتِهِ الحربية، وإصراره العنيدِ
على تحقيقِ النصرِ، لِيُلَوِّغَ مَطَامِحَهُ في الثَّأْرِ من روما
بعدَ ذلك، وقد استمرَّ في معاركِهِ المُظَفَّرَةِ مُدَّةَ
ثمانيةِ أعوامٍ، وفي نهايةِ العامِ الثامنِ كانتِ رُقْعَةُ
البلادِ التي استولى عليها تمتدُّ إلى المكانِ الذي تَقَعُ
فيه اليومَ مَدِينَةُ (أَلِيكَانْتِ)، وفي هذا المكانِ بَنَى

القائد القَرطاجيُّ المنتصرُ حِضْن (أكرالوكي)
ليجعلهُ مَرَكزَ أركانِ حَرْبِهِ، ويتخذُ مِنْهُ نُقْطَةَ انْطِلاقٍ
لِلْفُتُوحَاتِ التَّالِيَةِ.

وفي هذا العامِ (٢٢٩ ق. م) عَمَدَ هَمْلِقَارُ بَرَقَةَ
إِلَى تَقْسِيمِ جُنُودِ حَمَلَتِهِ إِلَى جَيْشَيْنِ، فَتَوَلَّى هُوَ بِنَفْسِهِ
قِيَادَةَ الْجَيْشِ الْأَوَّلِ، وَعَقَدَ لِيَوَاءِ الْجَيْشِ الثَّانِي
لِصَهْرِهِ أَزْرُوبَغْلَ، لِيَتَابَعَ كُلُّ جَيْشٍ حَمَلَتَهُ وَفُتُوحَاتِهِ
فِي مِثْلَاقَةٍ خَاصَةٍ بِهِ، وَقَدْ حُدِّدَ لِلْجَيْشِ الْأَوَّلِ أَنْ
يَنْهَضَ بِفَتْحِ مَدِينَةِ (إِلْشَّة) الْوَاقِعَةِ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ
حِضْنِ (أكرالوكي)، وَكَانَ جَيْشُ هَمْلِقَارِ بَرَقَةَ قَدْ
أَصْبَحَ قَوِيًّا جَدًّا بَعْدَ انْضِمَامِ قُوَّاتِ الزَّعِيمِ
الْإِسْبَانِيِّ (أُورِسُون) إِلَيْهِ، وَهُوَ رَئِيسُ قَبَائِلِ
الْأُورِيتَانِيِّينَ، الَّتِي تَحَالَفَتْ مَعَ الْقَرطاجيينَ،
وَتَطَوَّعَتْ لِمُسَاعَدَتِهِمْ فِي الْقِتَالِ وَالْإِسْتِيلَاءِ عَلَى
(إِلْشَّة).

كان الزعيمُ الاسبانيُّ أوريسونُ داهيةً حقاً حين استطاعَ أَنْ يَخْدَعَ القائدَ القرطاجيَّ العظيمَ ويُقنعه بصدقِ وِلائتهِ له، وهو يُضمرُّ في نفسه الغدرَ والحِيانةَ.

بدأ الزحفُ على مدينةِ إِلْشَة، وقُوَّتُ أوريسونَ في مُقدمةِ الجيشِ القرطاجيِّ، ومعها مِئات من العَجَلاتِ الضخمةِ تَجْرُها الثيرانُ، وعليها كَمِيات ضخمةٌ من الخَشَبِ السريعِ الاشتعالِ والزفتِ والقارِ والكبريتِ، وَفَجأةً أَضْرَمَ الاوريتانيونَ النارَ فيها، وانقلبُوا على حُلْفائِهِم وَوَجَّهُوا عَجَلاتِ النارِ إلى صُفوفِهِم، واندفعتِ الثيرانُ تَرْكُضُ في هَيْجَانٍ جُنُونِيٍّ، وَتَسْحَقُ القرطاجيينَ الذينَ دُعِرُوا لِهَوْلِ المُفاجأةِ، وَتَضَعُضَعُ شَمْلُهُم، وَتَفَكِّكُ جيشَهُم وَقَتَلَ عَدَدٌ كبيرٌ من جُنودِهِم، ولأَذْ كثيرٌ منهم بالفرارِ،

ووقف هملقار برقة في قلب النار، يُحاول تشجيع
الجُنود والسيطرة على الفوضى والدُّعْر والانهيار،
والصمود في وَجْهِ الحليف الاسباني الخائن، دُون
جَدوى، فقد انهار الجيش القرطاجي، ورأى قائده
نفسه مغزولاً عن قُلُوبه المدعورة، ولم يَثْبُتْ إلى
جانبه غير وَلَدَيْهِ هَنِيْعِلْ وَأَزْرُوبِعِلْ، ونَفَرٍ صغيرٍ
من الجُنود البواسل!

كان هنيْعِلْ حينذاك في السابعة عَشْرَةَ من
عُمُرِهِ، فتَّى حادَّ الذكاء، يَحْتَدِمُ بَسَالَةً وإِقْدَاماً،
وقد تَمَرَّسَ بِفُنُونِ القتالِ بإشرافِ أبيه في معاركِ
الفتح في اسبانية، حتى ضَمَّهُ أبوه إلى مَجْلِسِ أركانِ
حَرْبِهِ، وأَحَدَ يَسْتَعِينُ بِهِ وَيَتَّكِلُ عَلَيْهِ في الشدائدِ،
أَمَّا أَزْرُوبِعِلْ فَكَانَ يَوْمَذاك طِفْلاً في العاشرة، وقد
حَضَرَ من قَرطابَةِ مُنْذُ قَرِيبٍ، إِذِ اسْتَقْدَمَهُ أبوه منها

لِيُعَلِّمَهُ أَيْضاً مِهْنَةَ الْحَرْبِ عَمَلِيّاً فِي سَاحَاتِ
الْقِتَالِ .

وعندما حَلَّتِ الكَارِثَةُ، نَظَرَ هَمْلِقَارُ بَرَقَةً إِلَى
وَلَدَيْهِ، أَوْ شِبْلَيْهِ كَمَا كَانَ يُسَمِّيهِمَا، وَأَدْرَكَ عِظَمَ
الْخَطَرِ الرَّهِيبِ الَّذِي يُحِيقُ بِهِمْ جَمِيعاً، وَأَيَقَنَ أَنَّ
وَاجِبَهُ الْأَوَّلَ أَنْ يَعْمَلَ عَلَى إِنْقَاذِهِمَا مِنَ الْمَوْتِ،
فَأَمَرَهُمَا أَنْ يَتَّبِعَاهُ، وَأَطْلَقَ لِحَوَادِهِ الْعِئَانِ، فَلَجَّحَا بِهِ
وَهُمَا عَلَى جَوَادِنِهِمَا، فِي الطَّرِيقِ السَّهْلِيَّةِ الْمُتَمَدِّدَةِ،
بِاتِّجَاهِ حِصْنِ أَكْرَالُوكِي، وَمِثَالِ مَنْ فُرْسَانِ
أُورِيسُونِ يُطَارِدُونَهُمْ، لِأَنَّ زَعِيمَهُمْ يُرِيدُ أَنْ يُؤْتِيَ
بِالْقَائِدِ الْقَرْطَاجِيِّ الْعَظِيمِ حَيّاً أَوْ مَيِّتاً، وَرَسَمَ هَمْلِقَارُ
بَرَقَةً خَطَّتَهُ لِإِنْقَاذِ وَلَدَيْهِ وَافْتِدَائِهِمَا بِنَفْسِهِ، فَطَلَبَ
مِنْهَا أَنْ يُوَاصِلَا طَرِيقَهُمَا إِلَى الْحِصْنِ، وَأَوْقَفَ هُوَ
جَوَادَهُ، وَانْتَظَرَ قَلِيلاً حَتَّى انْقَشَعَ الْغُبَارُ، وَأَصْبَحَ

مُطَارِدُوهُ يَرَوْنَهُ بِوُضُوحٍ ، فَكَرَّضَ قُدَّامَهُمْ مُغَيَّرًا طَرِيقَهُ
لِيُبْعِدَهُمْ عَنْ وَلَدَيْهِ ، وَكَانَ رِجَالُ أَوْرِيَسُونَ يُرِيدُونَهُ
وَحَدَّهُ فَلَحِقُوا بِهِ ، وَظَلَّ يَجْرُهُمْ وَرَاءَهُ ، حَتَّى بَلَغَ
نَهْرًا عَمِيقًا جَارِفًا ، فَأَفْتَحَمَهُ بِجَوَادِهِ ، وَجَرَفَهُ
التِّيَّارُ إِلَى الْبَحْرِ ، حَيْثُ غَابَ فِي أَعْمَاقِهِ إِلَى
الْأَبَدِ ، وَلَمْ يَعْثُرْ أَحَدٌ عَلَى جُثَّتِهِ ، وَبِذَلِكَ افْتَدَى
القَائِدُ الْقَرطَاجِيُّ الْعَظِيمُ كَرَامَتَهُ بِحَيَاتِهِ ، وَأُنْقَذَ
وَلَدَيْهِ مِنْ عَارِ الْأَسْرِ أَوْ الْمَوْتِ !

بعد موت هملقار برقة الكبير عاد الجيش
القرطاجي الثاني الذي يقوده صهره أزروبل إلى
حيض أكرالوكي، حيث أعلنه الجيش والشعب
قائداً عاماً خلفاً للقائد العظيم الراحل، وكان
أزروبل بعد مرافقته له تسع سنوات قد أصبح ذا
كفاية وتجربة في القيادة والحروب، فتولى القيادة
العامة دون منافس، لأن هنيبل كان في الثامنة
عشرة من عمره، وهي سن لا تسمح له بأن يحل
محل أبيه في تحمل الأعباء الكبيرة التي تتطلبها
القيادة العامة، ووافق مجلس الشيوخ في قرطاجة
على تعيين أزروبل دون تردد، وشمر القائد الجديد
عن ساعده الجدد للانتقام من الأوريتانيين، فحشد

جَيْشاً كَبِيراً مِنْ مِائَةِ أَلْفِ مُقَاتِلٍ مِنَ الْمُشَاةِ، وَسِتَّةِ
 آلَافٍ مِنَ الْفُرْسَانِ، وَمِائَتِي فِيلٍ، وَكَانَ قَدْ تَلَقَّى
 إِمْدَادَاتٍ وَنَجْدَاتٍ مِنْ قَرطاجَة، ثُمَّ شَنَّ عَلَى
 أَوْرِيسُونَ هُجُوماً صَاعِقاً، وَقَتَلَ جَمِيعَ الَّذِينَ اعْتَبَرَهُمْ
 مَسْئُولِينَ عَنْ مَوْتِ هَمْلِقَار، وَبَالَغَ فِي الْقَسْوَةِ عَلَى
 الْغَادِرِينَ وَالْخَوَنَةِ، وَلَكِنَّهُ عَامَلَ الْقَبَائِلَ الْأُخْرَى
 بِاللِّينِ وَالسِّيَاسَةِ، وَاسْتَطَاعَ بَدَهِائِهِ أَنْ يَبْسُطَ نُفُوذَ
 قَرطاجَة بِالسَّلْمِ وَالتَّحَالُفِ مَعَ رُؤَسَاءِ الْقَبَائِلِ أَكْثَرَ
 مِمَّا بَسَطَهُ بَانْتِصَارَاتِهِ الْحَرْبِيَّةِ، وَبَعْدَ وَفَاةِ زَوْجَتِهِ
 — ابْنَةِ هَمْلِقَار — تَزَوَّجَ مِنْ ابْنَةِ رَئِيسٍ لِإِحْدَى
 الْقَبَائِلِ الْإِسبَانِيَّةِ، مِمَّا أَكْسَبَهُ شَعْبِيَّةً، وَجَعَلَهُ فِي
 نَظَرِ الْإِسبَانِ بَطَلاً قَوْمِيّاً، وَلَيْسَ فَاتِحاً أَعْجَبِيّاً، وَمِنْ
 أَهَمِّ أَعْمَالِ أَزْرُوبَعَلٍ إِنْشَاؤُهُ مَدِينَةَ قَرطاجَة
 — أَيِ قَرطاجَة الصَّغِيرَةِ — عَلَى السَّاحِلِ الْإِسبَانِيِّ،

فجاءت بضخامة أسوارها ومثانتها، وروعة هياكلها
 وقصورها وشوارعها وحدائقها الغناء، مشابهة لأمتها
 قرطاجة، وكان أزروبل يُعدها لتكون قاعدة
 عسكرية للقوات البرية والبحرية التي ستنتقل منها
 يوماً للثأر من روما وسحقها، ذلك الحلم الأكبر
 الذي خلفه هملقار برقة ليصهره وأولاده من بعده،
 ولكن روما انتهت إلى قيام دولة فتية في اسبانية،
 دولة كثيرة الموارد، منصرفة إلى صنع آلة حرب
 جبارة، ولولا قتل الرومانيين من هجوم غولي على
 أراضيهم لبادروا إلى القضاء على الوجود القرطاجي
 في اسبانية، ولما لم يشاءوا أن يحاربوا عدوين في
 آن معاً، قرروا التفاهم مع القرطاجيين، وأرسلوا
 وفداً إلى أزروبل للتفاوض، وانتهى الأمر عام
 ٢٢٦ ق. م بعقد معاهدة الاير التي تنص على

إطلاق يد القَرطاجينَ وراء نَهْر الإيبر، على ألا يتجاوزوا هذا النهر صَوْبَ أوربَة، فكانت هذه المعاهدةُ اعترافاً من روما بِسَيْطَرَة أُرُوبَعلَ على ثُلثي إسبانية.

وبعد إبرام المُعاهدةِ بسنواتٍ قليلةٍ قُتِلَ أُرُوبَعلُ اغتيالاً في خيمته عام ٢٢١ ق. م، في ظروفٍ غامضةٍ، وليسَ من المُستبعدِ أن تكونَ لروما يدٌ في اغتياله، وقيلَ أيضاً إنَّ قاتله قد يكونُ واحداً من رجالِ أوريسون، وبمصرع أُرُوبَعلَ أصبحتِ الأكثريةُ في مجلسِ الشيوخِ بِقَرطاجَة تميلُ إلى المُسالمةِ وتُوَيِّدُ حِزْبَ التجارِ، وزعيمِهِ حَنُونُ، وهم أنصارُ التفاهمِ السلميِّ لِتأمينِ مصالحِهِم الاقتصاديةِ، وقد قالوا: إنَّ قَرطاجَة لم تَعُدْ بحاجةٍ إلى فاتحٍ من رجالِ الحَرْبِ في إسبانية، بل هي اليومَ

بحاجة إلى رجلٍ إداريٍّ حكيمٍ يَحْرُصُ على السَّلمِ،
ويحافظُ على العلاقاتِ الطَّيِّبَةِ مع رومًا! غيرَ أنَّ
رجالَ الجيشِ القرطاجيِّ في أسبانيةٍ، وهم الذين
ربَّاهم همَلقارُ برقةَ وأَخْلَصُوا له ولصِهرِهِ من بَعْدِهِ،
أَذْرَكُوا أبعادَ المؤامرةِ التي يُدَبِّرُها حِزْبُ التجارِ،
وهم الذين كانوا يَحْلُمُونَ باليومِ العظيمِ الذي يَتَمُّ
لهم فيه الثَّأْرُ من روماءِ، فأَجْعَلُوا أَمْرَهُم على وَضْعِ
قَرطاجَةَ أمامَ الأمرِ الواقعِ، واختاروا هَنِيْبَعْلَ برقةَ
ابنَ هَمَلْقَارِ قائداً عاماً لهم، وهو شابٌّ في السَّابعةِ
والعشرينَ من عُمرِهِ، فبدأ بذلك مَرَحَلَةً جَدِيدَةً من
حياتِهِ.

الباب الثالث

القائد القرطاجي الشاب

يَسْتَعِدُّ لِلْحَمْلَةِ الْكُبْرَى

٢٢١-٢١٩ ق. م

وجدتْ حَكُومُهُ قَرطاجَةَ نَفْسَها أَمَامَ الأَمْرِ الواقِعِ
في اسبانيَّة، فاضطُرَّتْ إلى المُوافَقَةِ على تَغْيِينِ
هَنِّيْبِعلَ بَرَقَةَ قائِداً عَاماً لِقُواتِها هَناكَ، وبَدَأَ القائِدُ
الشابُّ مَهْمَتَهُ بِمَحمِلَةٍ مُظفَرةٍ على مَناطِقِ القَبائِلِ الَّتِي
لَمْ يَتِمَّ إخضاعُها لِلحُكْمِ القَرطاجِيِّ، وَهِيَ مَناطِقُ
تَقَعُ جَنُوبِيَّ نَهرِ الإيْبَرِ، وَلِقَرطاجَةِ الحَقِّ في
إِخضاعِها حَسَبَ مُعاهِدَتِها مَعَ رَوما، وَهِيَ مِنْ أَغْنَى
المَناطِقِ الإسبانيَّةِ بِمَعْدِنِ الفِضَّةِ، فَاسْتولى هَنِّيْبِعلُ
على ما فِيها، واسْتسلمَتْ لَه المُدُنُ المُجاوِرَةُ دُونَ
قَتالٍ، وَعادَ إلى قَرطاجَتِهِ مِنْ حَمَلَتِهِ بِكَميَّاتٍ كَبيْرَةٍ
مِنْ الغَنائِمِ والأَمْوالِ، تُرافِقُهُ زَوجَتُهُ شابَةً حَسَناءَ

هِيَ ابْنَةُ الْمَلِكِ الْإِسْبَانِيِّ قَسْطَلُون، وَانْصَرَفَ إِثْرَ عَوْدَتِهِ إِلَى تَنْظِيمِ شُؤُونِ الدَّوْلَةِ وَتَدْعِيمِ الْجَيْشِ، فَأَغْرَقَ الْجُنْدَ بِالْعَطَايَا وَالْمُكَافَأَاتِ، لِيَكْسِبَ قُلُوبَهُمْ وَيَجْعَلَهُمْ يَزْدَادُونَ تَعَلُّقًا بِهِ وَإِخْلَاصًا لَهُ، وَكَانَ مَجْلِسُ أَرْكَانِ حَرْبِهِ يَمْلِكُ صِلَاحِيَّاتٍ وَاسِعَةً تُخَوِّلُهُ حَقَّ إِنْشَاءِ جَيْشٍ دَائِمٍ، لَهُ مَوَارِدُهُ الْمُسْتَقِيلَةُ عَنْ مَوَارِدِ الْحُكُومَةِ وَعَنْ مُرَاقِبَةِ قَرطَاجَةَ، وَقَدْ نَمَتْ تِلْكَ الْمَوَارِدُ وَازْدَهَرَتْ عَلَى يَدِ هَمْلِقَارَ وَصْهَرِهِ أَزْرُوبَعْلَ مِنْ بَعْدِهِ، وَأَصْبَحَتْ قَرطَاجَةُ بِهَا قَادِرَةٌ عَلَى إِعَانَةِ قَرطَاجَةَ نَفْسِهَا فِي أَوْقَاتِ الْأَزْمَاتِ الْاِقْتِصَادِيَةِ.

بَعْدَ أَنْ أَقَامَ هَنْبِيعُلُ فِي قَرطَاجَةَ بِضْعَةَ أَشْهُرٍ، قَامَ بِمَحَلَّةٍ ثَانِيَةٍ لِفَتْتَاحِ الْمَدِينِ الْإِسْبَانِيَةِ الَّتِي لَمْ يَتَمَّ إِخْضَاعُهَا لِلْحُكْمِ الْقَرطَاجِيِّ، فَاسْتَوْلَى عَلَى مَدِينَةِ سَلْمَنْقَةَ، وَأَرْبُوقَلَةَ، وَفِي طَرِيقِ

عُودِيَه إِلَى قَرْطَاجَنَّةَ مُثْقَلًا بِالْغَنَائِمِ، اصْطَدَمَ بِجَيْشِ
 إِسْبَانِيٍّ عِنْدَ الْمِنْطَقَةِ الْعُلْيَا مِنْ نَهْرِ التَّاجِ، وَهَزَمَهُ
 هَزِيمَةً سَاحِقَةً رَغَمَ تَفُوقِ الْإِسْبَانِ الْعَدِيدِيِّ، وَتَابَعَ
 طَرِيقَهُ إِلَى قَرْطَاجَنَّةَ، وَلَمْ يَبْقَ فِي جَمِيعِ الْبُلْدَانِ
 الْإِسْبَانِيَّةِ الْوَاقِعَةِ جَنُوبِيَّ نَهْرِ الْإَيْبَرِ مَنْ يَسْتَطِيعُ
 مُقَاوَمَةَ الْجَيْشِ الْقَرْطَاجِيِّ، بِإِسْتِثْنَاءِ مَدِينَةِ
 (سَاغُونَتِ) الَّتِي تَقَعُ فِي مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ بَيْنَ نَهْرِ
 الْإَيْبَرِ وَقَرْطَاجَنَّةَ، وَكَانَ سُكَّانُهَا قَدْ عَقَدُوا مَعَ رُومَا
 عَهْدًا وَجَعَلُوا مَدِينَتَهُمْ حَلِيفَةً لِلرُّومَانِ، غَيْرَ أَنَّ
 مُعَاهِدَةَ الْإَيْبَرِ، وَقَدْ أُلْغَتْ مَا قَبْلَهَا، تُعْطِي
 لِقَرْطَاجَةَ الْحَقَّ فِي إِخْضَاعِ مَدِينَةِ سَاغُونَتِ لَهَا،
 وَكَانَ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ حَزْبٌ كَبِيرٌ يَدْعُو إِلَى التَّحَالُفِ
 مَعَ قَرْطَاجَةَ، وَقَامَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْصَارِ رُومَا فِي
 الْمَدِينَةِ فِتْنَةٌ دَامِيَةٌ خِلَالَ عَامَيْ ٢٢٣-٢٢٢ ق. م.

فاستنجد هؤلاء بروما، فأرسلت إليهم قوة مُسلَّحة
استعانوا بها على قَادةِ حزبِ قرطاجَة، وقبضوا عليهم
جميعاً وأغدّموهم، وطردوا أتباعهم من المدينة،
فأصبحت سَاغُونُتُ مركزاً للنفوذِ الرومانيّ في
قَلْبِ اسبانيةِ القَرطاجيّةِ، وأضحت خطراً على
هنيبعل، ففي استطاعةِ الرومان أن يُهدّدوه في كلِّ
حينٍ بإنزالِ قُواتِهِم في مَرَفَأِ سَاغُونُتِ المُحالفةِ لهم
وكان الأسطولُ الرُّومانيُّ قد أصبح أقوى بكثيرٍ من
أسطولِ قرطاجَة، فاضطّر هنيبعلُ إلى آخِثلالِ
المدينة، لِيَتَفادى بذلكَ خَطَرَ وُجودِ جيشِ رُومانيٍّ
في مُؤخَّرَتِهِ.

كانتِ الجيوشُ الرومانيةُ مشغولةً بالحربِ في
اليُونانِ فأرادتُ أن تُوفّرَ على نَفْسِها فَتَحَ جبهةٍ أخرى
في اسبانية، فَلجأتُ إلى إرسالِ مَنذُوبِها إلى

قَرْطَاجَةَ، لِلتَّهْدِيدِ بِالْحَرْبِ، وَلَكِنَّ هَنِيْبَعْلَ قَدَّرَ
بَذْكَائِهِ أَنَّ رُومًا أَعْجَزُ مِنْ أَنْ تَنْتَقِلَ مِنَ التَّهْدِيدِ إِلَى
الْعَمَلِ، فَزَحَقَ عَلَى سَاغُونْتِ وَضَرَبَ عَلَيْهَا الْحِصَارَ
فِي رَبِيعِ عَامِ ٢١٩ ق. م، وَلَكِنَّ سُكَّانَهَا قَاوَمُوهُ
مُقَاوَمَةً عَنِيفَةً، بَانْتِظَارِ مُسَاعَدَةِ رُومَا لَهُمْ، وَاسْتَمَرَّ
الْحِصَارُ ثَمَانِيَةَ أَشْهُرٍ، كَانَ هَنِيْبَعْلُ خَلَاهَا قَدْ تَرَكَّ
لِأَحَدِ ضُبَّاطِهِ (مَاهَرْبَعْلَ) قِيَادَةَ الْحِصَارِ، وَغَابَ
عَلَى رَأْسِ قِطْعَةٍ مِنَ الْجَيْشِ لِلْقِيَامِ بِحِمْلَةٍ تَأْدِيبِيَّةٍ فِي
مِنْطَقَةِ ثُولِيدُو (طَلِيْطَلَّةَ)، فَلَمَّا عَاذَ مِنْهَا كَانَتْ
الْمَدِينَةُ الْمُحَاصَرَةُ عَلَى وَشِكِ الْإِسْتِسْلَامِ، فَدَخَلَهَا
هَنِيْبَعْلُ مُنْتَصِراً، وَاسْتَوْلَى عَلَى غَنَائِمٍ وَفِيرَةٍ
وَكَمِّيَّاتٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْأَمْتَعَةِ
وَالرِّيشِ، فَأَرْسَلَ قِسْماً مِنْهَا إِلَى قَرْطَاجَةَ الَّتِي
أَبْتَهَجَتْ بَانْتِصَارِ قَائِدِهَا الْبَطْلِ، وَأَقَامَتْ لَهُ مَعَالِمَ

الزينة والفرج، وعلا نجم هنيعل فيها، وأصبح
اسمه على كلِّ لسان!

أما روما فقد كانت الضربة التي تلقتها
شديدة القسوة عليها، ذلك أن سقوط المدينة
الحليفة لها دون أن تُسرَّع إلى حمايتها وعونها قد
أفقدتها ثقة الشعوب بعهودها، وعقد مجلس الشيوخ
الروماني جلسةً صاخبةً، وبعد مناقشات طويلة تمَّ
الاتفاق على إرسال وفدٍ إلى قرطاجَة لِسؤالها: هل
هي مُوافقةٌ على أعمالِ هنيعل أم أنها تستنكرها،
فإن تكن مُوافقةً فالحربُ أمامها، وإلا فعليها أن
تُسَلِّمَ قائدها الشابَّ إلى روما أسيراً مُقيداً
بالسلاسل، وأن تجلِّس قُوَّاتها عن ساعونَت لِتَعُوذَ
الحاميةُ الرومانيةُ إلى احتلالِ مرفئها!

وأبحر الوفدُ الرومانيُّ في آذار ٢١٨ ق. م إلى

قَرطَاجَة، وحضرَ جِلْسَة مَجْلِسِ شُيُوخِهَا المُنْعَقَدَة
لِذَلِكَ، واستمعَ الشُيُوخُ إلى إِنْذارِ رُوما وشُروطِهَا،
والحقُّ أَنَّ عَجْرَقَة المَبْعُوثِينَ الرومانيين جعلَ تَهْدِيدَهُم
أَمْرًا مُشِيرًا، فَشُروطُ رُوما تَتَطَلَّبُ أَنْ تَتَنَازَلَ
قَرطَاجَة عَنْ اسْتِمالِهَا وَكِرَامَتِهَا، وَأَنْ تَخْسِرَ
مُمْتَلَكَاتِهَا فِي اسبَانِيَة، وَلَوْ قَبْلَ مَجْلِسِ الشُيُوخِ ذَلِكَ
لَنَارَ عَلَيْهِ جَيْشُ قَرطَاجَة المُعْتَرِّ بِقُوَّتِهِ وَعَبْقَرِيَّةِ قَائِدِهِ
وَطُمُوحِهِ إلى مُوالاةِ الفُتُوحَاتِ وَتَحْقِيقِ
الانْتِصَارَاتِ!

لهذا ارتجفَ الشُيُوخُ القَرطَاجِيُّونَ مِنَ الغَضَبِ،
وَأَجابُوا الوَفْدَ الرومانيَّ عِنْدَمَا قَالَ رَئِيسُهُم:
«جِئْتُكُمْ بِالسَّلَامِ أَوْ بِالْحَرْبِ، فَاخْتَارُوا مَا
تُرِيدُونَ» أَجابُوهُ بِهَدْوٍ وَغَيْظٍ مَكْظُومٍ: «اخْتَرْنَا أَنْتَ
مَا تَشَاءُ!»

فطرحَ رئيسُ الوفدِ الرومانيِّ عندَ ذلكَ عنه رِداءه
الأبيضَ، رمزَ السلامِ، ووضعَ يَدَهُ على سَيفِهِ
وصاحَ:

— «هذا هُوَ رَدُّ روما، الحربُ!»

وردَّ عليه الشيوخُ غاضبينَ: «إننا إذاً نقبلُها!»
وهكذا بدأتِ الحربُ الثانيةُ بينَ قرطاجَ
وروما، وأخذَ هَنِيْبَعْلُ يَسْتَعِدُّ للقيامِ بحملةِ الثأْرِ
الكُبْرى التي كانت حُلْمَ أبيهِ مِنْ قَبْلِهِ.

كان الوفد الروماني بعد مغادرته قرطاجة قد
تَوَجَّهَ إلى اسبانية لِدَعْوَةِ قبائلها إلى الثورة على
القرطاجيين والانضواء تحت لواء روما لِحمايتهم،
ولكنَّ أَكْثَرَ القبائل سَخِرَتْ من دَعْوَةِ الوفدِ،
وأشارت إلى إهمالِ روما لِحلفائها عند الخطر، وما
حلَّ بمدينة ساغونت أكبر دليل على ذلك؛ وتابع
الوفد طوافه في اسبانية دُونَ جَدوى، ثم انتقل إلى
بلاد الغوليين لِيَطْلُبُوا منهم التصدّي لِهنيبعل وَمَنَعَهُ
مَنْ المُرورِ في أراضيهم إذا حاول أن يجتازها لِيَتَغَرَّوْا
إيطالية، ولكنَّ الوفدَ لم يَلْقَ من الغوليين غيرَ
السُّخْريَّةِ والاختفاقِ وصِئحاتِ الاستنكارِ،

باستثناء المرسلين الذين كانوا حلفاء لروما وأصدقاء لها.

وتلقى هنيعل أنباء إخفاق الوفد الروماني في مهمته في الأقطار الإسبانية والغولية، وكان القائد المنتصر قد عاد من ساغونت إلى قرطاجنة ليَقْضِي فصل الشتاء، ويستعدّ لخوض الحرب التي كان عليه أن يواجهها في مطلع الربيع.

لقد حانت الساعة التي كان القائد العبري ينتظرها ليبرهن على مواهبه الكبيرة في فنّ الحرب والاستعداد للقتال، وها هو ذا الآن ينصرف بكلّ همة ونشاط إلى تهيئة حملته الكبرى للانقضاض على روما وسحقها والثأر منها، ولنا أن نشهد في كلّ جانب من جوانب استعداداته للحملة القادمة براعة هذا القائد المبرز الموهوب وبودر عبقريته

الكامنة في ابتكار الوسائل والخطط والتحضير لها، بعزيمة وجراءة ونشاط لا يعرف الكلال، وهمة وإقدام وإصرار على التغلب على جميع العقبات، لبلوغ الهدف المنشود.

بدأ هنيعل تحضيره للحملة بإعطاء جنوده الاسبانيين الأشداء إجازات طويلة ليقتضوا فصل الشتاء في بيوتهم، مع أهلهم، ليزدادوا تعلقاً به وتفانياً في سبيله.

ثم أرسل وفداً إلى قرطاجة للتفاهم مع مجلس الشيوخ على تبادل الجيوش، وهي خطة ابتكرها هنيعل، وتقضي بإرسال الجنود الأوربيين للدفاع عن أفريقية، وباستقدام الأفريقين للقتال في أوربة، وذلك تجنّباً للفتن والثورات، بإبعاد الجندي عن موطنه، لكيلا يتأثر بما قد

يَتَشَبُّ بَيْنَ مُوَاطِنِيهِ مِنْ ثَوْرَةٍ أَوْ عِضْيَانٍ عَلَى
الْقَرْطَاجِيِّينَ، وَلَأَنَّ الْجُنْدِيَّ إِذَا كَانَ بَعِيداً عَنْ
بِلَادِهِ يَظَلُّ أَكْثَرَ انْضِبَاطاً وَتَقِيداً بِالنِّظَامِ، وَأَشَدَّ
ارْتِبَاطاً بِالْجَيْشِ الَّذِي يَحِلُّ فِي نَفْسِهِ مَحَلَّ أَسْرَتِهِ
وَقَوْمِهِ الْبَعِيدِينَ، وَهُنَا يَتَرُزُّ هَدَفٌ كَبِيرٌ مِنْ أَهْدَافِ
هَنْبِيعَلٍ فِي اسْتِعْدَادَاتِهِ الْحَرْبِيَّةِ: فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَ
مِنَ الْمُتَرْزَقَةِ رِجَالاً لَا يُحَارِبُونَ بِأَجْسَادِهِمْ فَقَطْ،
بَلْ بِأَرْوَاحِهِمْ أَيْضاً، إِذْ يَخُوضُونَ المَعَارِكَ، بِإِيمَانٍ
وَعَقِيدَةٍ وَثِقَةٍ بِأَنَّهُمْ يُحَارِبُونَ مِنْ أَجْلِ انتِصَارِ قَضِيَّةٍ
عَادِلَةٍ، وَهَذَا هُوَ السِّرُّ الْكَبِيرُ وَرَاءَ الْقُوَّةِ الْقَاهِرَةِ
الَّتِي امْتَازَتْ بِهَا جُيُوشُ هَنْبِيعَلٍ، إِذْ تَمَكَّنَتْ عِبْقَرِيَّةُ
هَذَا الْقَائِدِ الْقَرْطَاجِيِّ الْعَظِيمِ مِنْ أَنْ تَصْنَعَ مِنْ
تِلْكَ الْجُيُوشِ الْمُؤَلَّفَةِ مِنْ مُتَرْزَقَةٍ شُعُوبٍ
مُخْتَلَفَةٍ جَيْشاً وَاحِداً مُتَمَاسِكا، وَأَنْ تَخْلُقَ فِي

صَمِيمٌ كُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهِ نَفْسِيَّةٌ تَضَامُنِيَّةٌ وَشُعُوراً
 عَمِيقاً بِالْوَاجِبِ الْعَسْكَرِيِّ، وَأَنْ تَجْعَلَهُمْ يَسْتَهْيِئُونَ
 كُلَّ التَّضَحِيَّاتِ وَرَاءَ قَائِدِهِمُ الْعَبْقَرِيِّ، لِتَحْقِيقِ
 لِبُطُولَاتٍ، وَسَخِّقَ جُيُوشَ رُومَا، وَهِيَ جُيُوشُ
 وَهِيَّةٌ تُدَافِعُ بِاسْتِمَاتَةٍ عَنْ كَرَامَةِ أُمَّتِهَا وَأَرْضِهَا
 وَطَنِهَا!

إِنَّ اهْتِمَامَ هَنِّيْعَلٍ بِهَذِهِ النَّوَاحِي الْمَعْتَوِيَّةِ
 لَاسْتِغْلَالِ طَاقَاتِ الْمُقَاتِلِ الرُّوحِيَّةِ، إِلَى جَانِبِ
 طَاقَاتِهِ الْبَدَنِيَّةِ، مِنْ أَعْظَمِ مَزَايَا الْقَائِدِ الْأَكْبَرِ
 الْحَرِيصِ عَلَى تَقْوِيَةِ الْإِرَادَةِ فِي رِجَالِهِ، وَتَفْجِيرِ
 إِمْكَانَاتِ الْبَسَالَةِ وَالْجُرْأَةِ وَالْإِقْدَامِ فِي نَفْسِهِمْ.

وَصَرَفَ هَنِّيْعَلُ جَانِباً كَبِيراً مِنْ اهْتِمَامِهِ
 وَاسْتِعْدَادَاتِهِ لِلْحَمَلَةِ بِإِرْسَالِهِ الْمَبْعُوثِينَ إِلَى رُؤَسَاءِ
 الْقَبَائِلِ الْغُولِيَّةِ، لِيَجْمَعَ الْمَعْلُومَاتِ عَنِ الطَّرُقِ

المُؤدِّيَّة إلى إيطاليَّة، مَرَحَلَة مرحلَة، ولاسْتِكْشاف ما
يُمْكِنُ اسْتِكْشافُه عن العدو وإمكاناتِه وخِطَطِه
ومواقع أَرْضِه ومَدَى استعداداتِه، وهذه ناحيَة أُخرى
من عبقرية هنيغل، إِذْ أُنْشَأَ بِذَلِكَ ما يُسَمَّى اليوم
بالاستخباراتِ أو (المكتب الثاني) لِتَرْوِيدِ
القيادة بِأَسْرارِ العدو، وهكذا نَعْلَمُ أَنَّ القائدَ
القرطاجيَّ الأكبرَ لم يَرْتَجِلْ حَمَلَتَه الكُبرى ارتجالاً،
ولم يُقَدِّم على اجتيازِ جبالِ البيرنه، وبلادِ الغول،
ووادي نهرِ الرُون ثم جبالِ الألب، مُعَرِّضاً جَيْشَهُ
لأخطارٍ كبيرةٍ، دُونَ دراسةٍ دَقِيقَةٍ، واتِّخَاذِ التدابيرِ
الكفيلةِ بنجاحِ خِطَّتِه !

ويؤكدُ الباحثون أَنَّ والدَ هنيغل، هَمَلَقار برقة،
كَانَ يُمَهِّدُ لِلْقِيَامِ بِمِثْلِ هذه الحملة، حينَ عَمَدَ إلى
إِنشاءِ جالِيَّاتٍ قُرطاجيةٍ سِرِّيَّةٍ في بلادِ الغول، وفي

قلب إيطالية، لتكون عند الحاجة بمثابة (طابور خامس) للجيش الزاحف، وقد تابع هنيعل خطة أبيه، وزاد عليها باتصاله برؤساء القبائل الغولية وتقديم الهدايا السخية إليهم، ليكسب قلوبهم، ولتخريضهم على روما، والحق أن القبائل الغولية القاطنة في جوار جبال الألب من الناحية الإيطالية كانت تُضمرُ أشدَّ البغض لروما، وهو بغض عميق موروث أذكت نيرانه الحروب الدائمة بين روما وتلك القبائل، وكانت خطة هنيعل تقوم على إثارة الشعوب الغولية والإيطالية على روما، وتأليف قواتٍ مُحاربةٍ من تلك الشعوب، تنضمُّ إلى الحملة القرطاجية، لسخق روما والقضاء عليها.

وهكذا أتم هنيعل تحضيره لحملة الثأر الكبرى، وقد كان أمامه للوصول من إسبانية إلى

روما طريقان: الأول قصيرة وسهلة، وهي التي
 تمتدُّ على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، والثانية
 خطيرة وصعبة لأنها تمرُّ بسلسلتين من الجبال
 الوعرة هما البيرنة والألب، وبالمناطق الغليّة
 وقبائلها الباسلة، وبوادي نهر الرون، وقبل الوصول
 إلى السهول المؤدّية إلى روما لا بُدَّ من اجتياز
 جبال الأبنين ومنحدراتها الخطرة، ومع ذلك فقد
 اختار هنيعلٌ هذه الطريق الطويلة الخطرة،
 ليُتاح له أن يُثير القبائل الغليّة والايطالية على روما
 في طريقه إليها أولاً، وليتجنّب التعرّض لهجوم
 القبائل الخاضعة لثفوذ مرسيلية حليفة الرومان في
 الطريق البحرية الأولى ثانياً، وليُنازل الجيوش
 الرومانية في السهول الفسيحة التي يستطيع فيها أن
 يقوم بعمليات عسكرية واسعة ثالثاً، وليستولي على

المناطق الخصبية التي تُغذي جيشه بِمَوارِدِها وخيراتِها
الوفيرة، حتى وَلَوْ انقطعَ عنه المَدَدُ من اسبانية
رابعاً! وبذلك بدأ القائدُ العبقرى مُغامرته الكُبرى
وهو دونَ الثلاثينَ من عُمره.

الباب الرابع

هنيعلُ فاتحُ أوربةَ

في حَمَلَتِهِ الكُبرى

٢١٩-٢٠٤ ق. م

أما الرومان فقد بنوا خِطَّتَهُم الحربية لِمُواجهَةِ
حملةِ هَنِيْبَعْلَ على تَشْدِيراتِ خاطِئَةٍ: فهم كانوا
واثقينَ بأنَّ القائدَ القَرطاجيَّ سيزحفُ إلى
إيطاليةِ من الطريقِ البَحْرِيَّةِ، بعد أن يتركَ قِسمًا
من قُوَّاتِهِ في اسبانيةِ لِلطَّوارِءِ، أما الجيشُ الزاحفُ
فَسَيُضْطَدمُ بالقبائلِ التي تُشيرُها مَرسِليُهُ فلا يَصلُ
إلى وادي نَهْرِ الرُّونِ إلا وهو مُرْمَقٌ خائِرُ القُوى،
فَتَتَصَدَّى لَهُ حِينذاك الجيوشُ الرومانيةُ وتَسَحِّقُهُ
وتُطارِدُ قُلُوبَهُ إلى جبالِ البيرتة، حيثُ تنقلبُ القبائلُ
الغُولىةُ على القائدِ القَرطاجيِّ المهزومِ، وتَنضوي
تحتِ لواءِ الجيشِ الرومانيِّ المُنتَصِرِ، لِلزَّخَفِ على

اسبانية وتحريرها من القوّات القرطاجية، قبل الانتقال إلى أفريقية لمنازلة قرطاجة وسحقها وإزالتها من الوجود. وكانت خطة الرومان تقضي كذلك بفتح جبهة ثانية في أفريقية لحصار قرطاجة والضغط عليها لتدعّن لإرادة روما، ولتنتهب الجيوش الرومانية المدن القرطاجية الصغيرة التي لا تحميها الحصون والأبراج: وكانت روما تعتقد أنّ غزوها لأفريقية سيرغم هنيعل على التراجع عن الأراضي الإيطالية!

ولكنّ تقديرات الرومان لم تكن في محلّها: فهنيعل الذي قطع المسافة بين نهر الإبير وجبال البيرنه في ثلاثة أشهر، وقضى على المقاومة التي تصدّت له واعترضت سبيله خلال ذلك، لم يلبث أن اجتاز بقوّاته الضخمة جبال البيرنه، وتمكّن من

عَقْدِ صِلَاتِ الصَّدَاقَةِ مَعَ الْقَبَائِلِ الْغُولِيَّةِ فَعَبَّرَ
أَرَاضِيهَا وَبَلَغَ وَادِي الرُّونِ فِي مُدَّةٍ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ
اجْتَاَزَ نَهْرَ الرُّونِ بَعْدَ قَهْرِ الْقَبَائِلِ الْغُولِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ
تُقِيمُ عَلَى ضِفَّتَيْ النَّهْرِ، وَهِيَ مِنْ حُلَفَاءِ رُومًا،
وَأَصْبَحَتْ طَرِيقَ جِبَالِ الْأَلْبِ مَفْتُوحَةً أَمَامَهُ!

وعندما رأى هَنِيئَعْلُ تَهَيَّبَ جُنُودَهُ مِنْ
اجْتِيَازِ تِلْكَ الْجِبَالِ الشَّاهِقَةِ خَطَبَ فِيهِمْ لِيُصَوِّرَ
لَهُمْ عَظَمَةَ الْعَمَلِ الَّذِي يَقُومُونَ بِهِ، وَعِظَمَ
الْفَوَائِدِ الَّتِي سَيَجْنُونَهَا عِنْدَمَا تَسْقُطَ رُومًا تَحْتَ
ضَرْبَاتِهِمُ السَّاحِقَةِ، وَخَتَمَ خُطْبَتَهُ بِقَوْلِهِ: «مَا
هِيَ جِبَالُ الْأَلْبِ؟ إِنَّهَا جِبَالٌ عَالِيَةٌ، لَا شَيْءَ غَيْرَ
هَذَا! يَكْفِي أَنْ تَتَصَوَّرُوا أَنَّهَا أَعْلَى مِنَ الْبِيرَةِ،
وَأَنْ لَيْسَ فِي الْعَالَمِ أَرْضٌ تُلَامِسُ السَّمَاءَ حَتَّى
يَكُونَ اجْتِيَازُهَا مُتَعَدِّراً عَلَى الْبَشَرِ!»

وَتَحَمَّسَ الْجُنْدُ وَهَتَفُوا لِقَائِهِمُ الْعَظِيمَ، وَتَابَعُوا
زَحْفَهُمْ صَوْبَ الشَّامِ، إِلَى بِلَادِ الْقَائِلِ
الْأَلُوبُوجِيَّةِ، قَبْلَ أَنْ يَتِمَّكَنَ الْجَيْشُ الرُّومَانِيُّ
الَّذِي حَمَلَتْهُ السُّفُنُ إِلَى مِينَاءِ مَرْسِيلِيَّةٍ مِنَ اللَّحَاقِ
بِالْقَرطاجيينَ، فَعَادَ أَذْرَاجُهُ إِلَى سُفْنِهِ، لِيَعُودَ إِلَى
إِيطَالِيَّةٍ قَبْلَ وُصُولِ هَنِيْبَعْلَ إِلَيْهَا.

وَرَجَاءُ الْحَرْبِ إِلَى الْيَوْمِ يَعُدُّونَ اجْتِيَاظَ
هَنِيْبَعْلَ بِجُيُوشِهِ وَمُعِدَّاتِهِ وَفَيْلَتِهِ جِبَالَ الْأَلْبِ
وَمَمَرَاتِهَا الشَّاهِقَةَ الْخَطِرَةَ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ، وَالْحَقُّ
أَنَّ الْقَائِدَ الْقَرطاجيَّ اسْتَطَاعَ أَنْ يُذَلِّلَ أَمَامَ جَيْشِهِ
الزَّاحِفِ جَمِيعَ الْعَقَبَاتِ: مِنَ الْعَوَاصِفِ الثَّلْجِيَّةِ
الْهَائِلَةِ، إِلَى انْهِيَارِ الْكُتَلِ الْجَلِيدِيَّةِ عَلَى الْجُنُودِ، إِلَى
غَارَاتِ الْقَبَائِلِ الْمُتَوَحَّشَةِ، إِلَى التَّعَرُّضِ لِلسَّقُوطِ فِي
الْمَهَاوِي عِنْدَ السَّيْرِ عَلَى السُّفُوحِ الشَّدِيدَةِ الْانْحِدَارِ،

وقد كَانَ هَنِيْبَعْلُ يَقُوْدُ جِيْشاً جَرَّاراً يَجْرُ مَعَهُ أَهْمَالاً
ثَقِيْلَةً مِّنَ الْأَسْلِحَةِ وَالذَّخَائِرِ وَالْمُونِ، وَكَانَ يَسُوْقُ
عَشْرَاتٍ مِّنَ الْقِيَلَةِ، يَدْفَعُهَا دَفْعاً إِلَى اجْتِيَازِ
الْقِمَمِ، وَمِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّ الْقَائِدَ الْقِرطَاجِيَّ الْعَبْقَرِيَّ
قَدْ فَقَدَ عَدَداً كَبِيراً مِّنَ جُنُوْدِهِ فِي اجْتِيَازِهِ جِبَالَ
الْأَلْبِ، وَلَكِنْ وُصُوْلُهُ رَغَمَ كُلِّ ذَلِكَ، بَعْدَ الْانْحِدَارِ
الصَّغْبِ، إِلَى السُّهُولِ الْإِيطَالِيَّةِ، عَلَى رَأْسِ جَيْشِهِ
النِّظَامِيِّ، هُوَ فِي حَدِّ ذَاتِهِ مُعْجَزَةٌ تَارِيخِيَّةٌ خَارِقَةٌ
تَشْهَدُ بِعَظَمِ هَنِيْبَعْلَ وَحَزْمِهِ وَتَضَمُّمِهِ وَقُوَّةِ إِيْمَانِهِ،
وَعِنْدَمَا أَطْلَعَ الْجَيْشُ الزَّاحِفُ أَخِيْراً عَلَى السُّهُولِ
الْإِيطَالِيَّةِ الْمُتَمْتِدَةِ إِلَى أَقْصَى الْأَقْصَى أَشَارَ هَنِيْبَعْلُ
إِلَيْهَا وَقَالَ لِجُنْدِهِ:

«انْظُرُوا إِلَى هُنَاكَ! أَيُّهَا الْجُنُوْدُ أَنْتُمْ هُنَا
جَائِعُونَ خَائِرُ الْقَوَى، وَلَكِنِّكُمْ هُنَاكَ سَتَدْخُلُونَ

مُدناً عامرة تَغْصُ بالكُنُوزِ والتَّحَفِ وأَصْنَافِ الطَّعَامِ
والشَّرَابِ! إنَّكُمْ هُنَا تَفْتَرِشُونَ التُّرَابَ وَتَتَوَسَّدُونَ
الْحِجَارَةَ وَالصُّخُورَ، بَيْنَمَا تَنْتَظِرُكُمْ هُنَاكَ الْأَسِيرَةُ
الدَّافِئَةُ! كُلُّ هَذَا يَنْتَظِرُكُمْ، وَكُلُّ هَذَا سَيَكُونُ
لَكُمْ، وَهَذِهِ الطَّرِيقُ مَفْتُوحَةٌ أَمَامَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
أَبْطَالاً!»

وفي اليوم التالي بدأ الجنودُ يَهْبِطُونَ
المُنْحَدَرَاتِ، وَقَدْ خَسِرَ هَنِيْبَعْلُ فِي تِلْكَ الْمَهَاوِي
عَدَدًا كَبِيرًا مِنْ جُنُودِهِ أَيْضًا، وَعِنْدَمَا وَصَلَ جَيْشُهُ
إِلَى أَوَّلِ وَادِ إِيْطَالِيٍّ كَانَ عَدْدُهُ لَا يَزِيدُ عَنْ سِتَّةٍ
وَعِشْرِينَ أَلْفَ مُقَاتِلٍ، وَقَدْ أَمْضَى نَصْفَ شَهْرٍ فِي
اجْتِيَازِ جِبَالِ الْأَلْبِ!

وَيُعَلِّقُ وَاحِدٌ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ:
«لَقَدْ تَحَقَّقَ الْمُسْتَحِيلُ يَوْمَ اجْتِيَازِ هَنِيْبَعْلَ جِبَالِ

الألب!» غير أنَّ تحقيقَ المُستحيلِ كَلَّفَ القائدَ
المُغامِرَ سِتَّةَ وثلاثينَ ألفاً من الرِّجالِ: فقد هَلَكَ
أربعةَ عَشَرَ ألفَ جُنديٍّ في جِبالِ البيرنه وبلادِ
الغُوليينَ، وعُشرونَ ألفاً في جِبالِ الألب، إلى جانبِ
الخُسارةِ في المَواشي والأبقارِ والخُيولِ والفِيلةِ!

عندما وصل هنيعل بجيشه المُتعب المُرهق،
إلى سُهول إيطالية الشماليَّة ظنَّ الرومان أنَّ نصرهم
على هذا الجيش الصَّغير المُمزَّق قريبٌ جداً، فهؤلاء
المُترزقة الذين تَجَمَّعُوا من اسبانية وليبية ومِصرَ
وبلاد الغول والصحراء الافريقية طَمَعاً في الغنائم
والكسب لَن يَضُمُّدُوا طويلاً أمام أبطال الجيش
الرومانيِّ وهم يُدافعون عن أمتهم وبلادهم
وأرضهم، غير أنَّ الرومان أخطأوا أيضاً في هذا
الظنِّ، ولم يُدرِكُوا طاقةَ هذا القائد القرطاجيِّ
العَبْقَرِيِّ الذي سَحَّر أولئك الجنود بِقُوَّة شخصيته
وقُدْرته على انتزاع التَّضَرُّع في أخلِك المواقِف، وهو
الذي جَعَلَ رجاله يُؤْمِنُونَ بالشَّعار الذي رَسَمَهُ لهم:

(النصر أو الموت) وإنَّ جيشاً يَلْتَرُمُ بهذا الشَّعارِ
لَقَادِرٌ عَلَى قَهْرِ خَصْمِهِ وَانْتِرَاعِ النَّصْرِ عَلَيْهِ، مِمَّا
تَكُنُ قُوَّةُ الْخَصْمِ وَشِدَّةُ جَبَرُوتِهِ، وَهَذَا مَا سَنَرَاهُ
خِلَالَ الْمَعَارِكِ الْمُظَفَّرَةِ الَّتِي خَاصَّهَا هَنِيئَعِلُ بِرِجَالِهِ
الْأَشِدَّاءُ الشُّجْعَانِ حَتَّى وَصَلَ بِهِمْ إِلَى أَبْوَابِ رُومَا
الَّتِي رَكِبَهَا الرَّعْبُ لِعَجْزِ جَيُوشِهَا عَنْ صَدِّ الْفَاتِحِ
الْقِرطَاجِيِّ الظَّافِرِ.

بدأ الاحتكاك الأول بين هنيئعل والجيش
الروماني بقيادة (سييو) عند نهر التيسان، وكان
هنيئعل بحاجة إلى إخراج نصر خاطف على الرومان
لتقوية معنويات جنوده، ولاثبات قدرته على قهر
الرومان لتطمئن القبائل الغولية إلى قوته وتضم
تحت لوائه، وقد تمَّ كلُّ ذلك كما يُريده، بعد
معركة كاسحة أدت إلى تَضَعُّعِ الجيشِ

الرومانيّ وإصابة قائده بجراح أبعدته عن ساحة القتال، وشعر الرومان وهم في غمرة من الرغب والفوضى بأنّ الهزيمة قد حاقت بهم، فلاذوا بالفرار وطاردت فلولهم فرسان هنيعل، لتفضي عليهم، وبعد هذا الانتصار أسرع القبائل الغولية للتحالف مع القرطاجيين والانضمام إليهم، وأدركت روما أنّ القضاء على هنيعل ليس بالأمر السهل، فعمدت إلى تعديل خطتها الحربية، وأخجمت عن فتح جبهة ثانية في افريقية، وكانت الجيوش المعدّة لغزو قرطاجنة متجمعة في صقلية، ومُتأهبّة للإبحار إلى قرطاجنة، فصدر إليها الأمر بالرجوع إلى إيطاليا، وياتوجه إلى السهول الشمالية للانضمام إلى جيش (سيبيو).

وعندما وصلت تلك الجيوش بقيادة (لونغوس) إلى ميدان القتال، وكان هذا القائد مثلهفاً إلى

خَوْضِ الْمَعْرَكَةِ لِتَدْمِيرِ الْجَيْشِ الْقِرطَاجِيِّ، اعْدَ لَهُ
هَنْيِبَعْلُ كَمِيناً عِنْدَ نَهْرِ (لَا تَرِينَا)، ثُمَّ اسْتَبَجَرَ
خَصْمَهُ، وَهُوَ يَتَظَاهَرُ بِالتَّرَاجُيعِ أَمَامَهُ، فَاَنْدَفَعَ الْجَيْشُ
الرُّومَانِيُّ صَوْبَ النَّهْرِ الْفَائِضِ، حَتَّى إِذَا اجْتَاَزُوهُ بَعْدَ
أَنْ غَاصُوا فِي مِيَاهِهِ الْمُثَلَّجَةِ وَوُحُولِهِ بَرَزَ لَهُمُ الْكَمِينُ
الْقِرطَاجِيُّ وَأُطْبِقَتْ عَلَيْهِمُ كَتِيبَةُ الْفُرْسَانِ
الْقِرطَاجِيِّينَ. وَتَمَّ تَطْوِيقُ الْجَيْشِ الرُّومَانِيِّ،
وَأَنْدَحَرَ لُونْفُوسُ تَارِكاً خَلْفَهُ ثَلَاثِينَ أَلْفَ رَجُلٍ،
سَقَطَ أَكْثَرُهُمْ فِي الْقِتَالِ، وَأَلْقَى كَثِيرٌ مِنْهُمْ بِنَفْسِهِ فِي
النَّهْرِ فَجَرَفَهُ التِّيَّارُ، وَوَقَعَ الْبَاقُونَ أُسْرَى، وَعُدَّتْ
مَعْرَكَةُ (لَا تَرِينَا) أَوَّلَى مَعَارِكِ هَنْيِبَعْلِ الْكَبِيرَةِ
الْمُظَفَّرَةِ فِي حَمَلَتِهِ الْعَظِيمَةِ.

أما معركة (تراسيمين) فهي الثانية، وكان
الرومان فيها بقيادة القنصل فلامينيوس، وكان

رَجُلًا بِأَسِلًا عَظِيمَ الثَّقَةِ بِنَفْسِهِ، مِقْدَامًا يَسْتَحِفُّ
بِالْخَطَرِ، فَعَمَدَ هَنِيئَةً إِلَى اسْتِفْزَارِهِ لِيَجْرُهُ إِلَى
مَكَانٍ ضَيِّقٍ يُطَوِّقُهُ فِيهِ، وَيُيَدُّ قُوَّاتِهِ، قَبْلَ أَنْ
يَتِمَكَّنَ مِنْ إِدْرَاكِ الْفَخِّ الْمَنْصُوبِ لَهُ، وَهَكَذَا انْطَلَقَ
الرُّومَانُ يُطَارِدُونَ الْقَرطَاجِيِّينَ حَتَّى بَلَغُوا شَاطِئَ
(تِرَاسِيمِينَ) وَوَقَعُوا فِي الْفَخِّ، وَانْقَضَّ عَلَيْهِمُ
الْفِرْسَانُ الْقَرطَاجِيُّونَ الَّذِينَ كَانُوا يَكْمُنُونَ فِي
الْمُرْتَفَعَاتِ، وَقَدْ كَانَ الضَّبَّابُ الْمُخَيَّمُ عَلَى بُحِيرَةِ
(تِرَاسِيمِينَ) وَجَوَارِهَا يُخْفِيهِمْ، وَدَبَّ الدُّعْرُ فِي
صُفُوفِ الرُّومَانِ، وَوَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ فِي بُقْعَةٍ ضَيِّقَةٍ
مَنْ الْأَرْضِ، وَقَدْ حُشِرَ فِيهَا سِتُّونَ أَلْفًا مِنَ الرِّجَالِ،
يَتَقَاتِلُونَ فِي ضَرَاوَةٍ وَاسْتِمَاتِيَّةٍ، وَقُتِلَ فَلَامِينْيُوسُ فِي
الْمَعْرَكَةِ، وَسُحِقَ الْجَيْشُ الرُّومَانِيُّ سَحَقًا، حَتَّى لَمْ
يَبْجُ مِنْهُ غَيْرُ نَفَرٍ قَلِيلٍ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْهَزِيمَةُ مِنْ

أقذج الكوارث التي خلَّت بروما في تاريخها
كلَّه، وقد وقعت في خَزيرانَ عامَ ٢١٧ ق. م، وقد
أطلق هنيعلُ سراحَ الأسرى غيرِ الرومان «لأنه
— كما قال — ما جاء ليُحاربَ الشعوبَ الإيطالية،
بل ليُنقِذَ هذه الشعوبَ من طغيانِ روما، ويُرَفِّعَ
نيرَها الثقيلَ عن أعناقِ جيرانِها».

لم يَزَحَفْ هَنيعلُ على روما بعد انتصاره
الكاسِج في ترَاسِمينَ، وفضَّلَ التَّريُّثَ والاستعدادَ
قَبْلَ توجيهِ الضربةِ القاضيةِ، وتجمَّعَ سُكَّانُ روما وقد
استبَدَّ بهم الدُّعْرُ لِيَسْتَمِعُوا إلى أنباءِ المعركةِ الأخيرةِ،
وقد أيقنوا أنَّ الجيوشَ الرومانيةَ قد انهزمت في
مَعْرَكَةٍ كبيرةٍ! وأخذَ مجلسُ الشيوخِ يُوالي اجتماعاته
لاتخاذِ التدابيرِ اللازمةِ لِإِنقاذِ العاصمةِ
المُهَدَّدَةِ.

والمعركة المظفرة الثالثة التي كبد فيها
هنيعل الجيوش الرومانية هزيمة نكراء هي معركة
كان عام ٢١٦ ق. م، وفيها تمكن القائد القرطاجي
العسكري من إزغام الرومان على أن يُقابِلوه،
ووجوههم إلى المشرق، لِتُضايِقهم أشعة الشمس،
فَتَضَعَب عليهم الرؤية الواضحة، وَلِيَضْفَع الغبارُ
ووجوههم، إِذْ كَانَ الهَوَاء يَهْبُ من المشرق، وهو ما
حدث بالفعل، وكان من أسباب هزيمة الرومان،
قَبْلَ أَنْ تَغِيَبَ شَمْسُ ذَلِكَ النِّهَارِ، وَقَدْ امْتَلَأَ السَّهْلُ
الْفَسِيحُ فِي مِيدَانِ الْقِتَالِ بِجُثَثِ خَمْسِينَ أَلْفًا مِنَ
الرُّومَانِ الْقَتْلَى وَالْأَشْلَاءِ وَالْجَرْحَى، وَكَانَتْ

الحماسة في قلوب ضباط هنيعل على أشدها، فرحاً
 بالنصر العظيم، وإضراراً على متابعة القتال، وصاح
 أحدهم (ماهربعل) يسأل القائد أن يأمره بالزحف
 على رأس فرسانه إلى روما، ليفاجيء الرومانيين
 فيها، ويحتاح العاصمة الرومانية، وقد قصم انتصار
 هنيعل ظهرها وشل عزيمتها، ولكن القائد وقد
 أنهكه الاعياء أجاب بأن تلك مرحلة قادمة يجب أن
 يتهيأ لها، فقال ماهربعل عند ذلك كلمته التاريخية
 التي تناقلها المؤرخون بعد ذلك عنه عبر القرون:
 «أنت يا هنيعل تعرف أن تنتصر، ولكنك لا
 تعرف أن تستفيد من الانتصار!»

لقد كان هنيعل ينتظر الإمدادات التي طلبها
 من قرطاجة، ليجعل منها قوة احتياطية، لافتقاره إلى
 هذه القوة الآن، لحراسة آلاف الأسرى من

الرُّومَانِ، وَلَكِنَّ مَجْلِسَ الشُّيُوخِ فِي قَرطَاجَة، وَأَكْثَرِيَّةُ
 أَعْضَائِهِ مِنْ جَمَاعَةِ التَّجَارِ الحَرِيصِينَ عَلَى مَصَالِحِهِمْ
 الصَّغِيرَةِ الْخَاصَّةِ، وَالْعَاجِزِينَ عَنْ إِذْرَاكِ مَدَى الْخَطَرِ
 الرُّومَانِيِّ الَّذِي يُهَدِّدُ الدَّوْلَةَ القَرطَاجِيَّةَ بِالزَّوَالِ، لَمْ
 يَتَحَرَّكَ لِتَجْدَةِ هَنِيْبَعْلَ وَمَدَّهِ بِالمَالِ وَالرَّجَالِ، وَكَانَ
 مَجْلِسُ الشُّيُوخِ غَيْبِيًّا فِي مُوَاجَهَتِهِ لِتِلْكَ الظُّرُوفِ
 الدَّقِيقَةِ الَّتِي تَتَطَلَّبُ وَغِيًّا بَأَنَّ قَرطَاجَة إِنَّمَا تَخُوضُ
 مَعْرَكَةَ البَقَاءِ أَوْ الزَّوَالِ أَمَامَ رُومَا، وَأَنَّ قَائِدَ
 جُيُوشِهَا البَطْلَ هَنِيْبَعْلَ إِنَّمَا يَخُوضُ مَعْرَكَةَ
 المَصْنِيرِ، وَبَدَلًا مِنْ أَنْ تُكَلِّبَ قَرطَاجَة نِدَاءَ بَطْلِهَا
 الظَّافِرِ أَخَذَتْ تَتَلَهَّى بِالْجَدَلِ الْعَقِيمِ، فَأَضَاعَتْ
 بِذَلِكَ فُرْصَتَهَا الذَّهَبِيَّةَ الْكُبْرَى لِلْقَضَاءِ عَلَى
 رُومَا! وَلَمَّا كَانَ هَنِيْبَعْلُ بِحَاجَةٍ كَبِيرَةٍ إِلَى المَالِ،
 فَلَمْ يَجِدْ بُدًّا، وَقَدْ ضَنَّ تَجَارُ قَرطَاجَة عَلَيْهِ بِهِ، مِنْ

أَنْ يَعْزِضَ عَلَى أَسْرَاهُ الْكَثِيرِينَ افْتِدَاءً أَنْفُسِهِمْ
بِالْمَالِ، فَفَعَلَ ذَلِكَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ رُومًا سَتُؤَلَّفُ مِنْهُمْ
جَيْشًا جَدِيدًا يَعُودُ إِلَى مُحَارِبَتِهِ، وَبِذَلِكَ كَانَ خَطَأً
قَرطاجَةَ فِي خِذْلَانِهَا بِطُلْهَا الْعَظِيمَ قَاتِلًا، لِأَنَّ رُومًا
بَعْدَ هَزِيمَةِ جُيُوشِهَا فِي كَانَ أَصْبَحَتْ لَا تَمْلِكُ أَيْةَ
قُوَّةٍ تَحْمِيهَا، وَلَوْ أَتَبَعَ هَنِيْبَعْلُ انْتِصَارَهُ بِالزَّخْفِ
عَلَيْهَا لِاحْتِلَّهَا وَأَبَاحَهَا لِجُنُودِهِ، وَوَضَعَ بِذَلِكَ نِهَآةً
فَاجِعَةً لِلدَّوْلَةِ الرُّومَانِيَّةِ.

وَيَرَى بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ أَنَّ هَنِيْبَعْلَ تَرَيَّثَ بَعْدَ
مَعْرَكَةِ كَانَ لِيَتْرَكَ لِرُومًا مَجَالَ الْمُفَاوِضَةِ، وَتَكُونَ
الْبَادِئَةُ بِطَلْبِ الصُّلْحِ، وَهَذَا هُوَ سِرٌّ إِخْجَامِيهِ عَنْ
مُتَابَعَةِ الزَّخْفِ عَلَى الْعَاصِمَةِ الرُّومَانِيَّةِ، وَلَكِنَّ رُومًا
خَيَّبَتْ ظَنَّنَ الْقَائِدِ الْقَرطَاجِيِّ الْمُتَتَصِّرِ، وَأَصْرَتْ
عَلَى مُتَابَعَةِ الْقِتَالِ وَمُوَاصَلَةِ الْحَرْبِ حَتَّى النِّصْرَ أَوْ

الموت ! وأمامَ عِنادِ روما وصلابتِها وتضييمِها أيقنَ
 هنيعلُ أنَّ مصيرَ الحربِ أصبحَ غامِضاً ومخفِوفاً
 بالمخاطرِ، وصارتِ رُوما تَعتمدُ على عُنصرِ الزَّمنِ في
 الاكتفاء بالمُناوشاتِ الصغيرة، والعودةِ إلى
 الاعتصامِ وراءِ الخُصُونِ والاستحكاماتِ المنيعة،
 دُونَ الإقدامِ على خَوْضِ معاركٍ كبيرةٍ
 وحاسمةٍ، وقد عاوَدَ هنيعلُ الطلبَ من قرطاجَةٍ
 لِترسَلِ إليه المُساعداتِ، وكانَ رسوله إليها أحدَ
 إخوتِهِ (هاغون) الذي تصدَّى لَهُ زعيمُ حِزْبِ
 التجارِ حَنُونُ في مجلسِ الشُّيوخِ بقوله : «لماذا يطلبُ
 هنيعلُ مساعدتنا إذا كانت أخبارُ انتصاراتِهِ
 حَقِيقَةً، أمّا إذا كانتِ الأنباء التي يُرسلُها إلينا
 مُزَوَّرةً، فهو لا يَسْتَحِقُّ أَيَّةَ مُساعدةٍ منا !!»

لم يُدركِ حَنُونُ أنَّ الصِّراعَ القائمَ بينَ رُوما

وقرطاجَة هو صِراعٌ مَوْتٌ أَوْ حَيَاةٍ، وَأَنَّ النِّصْرَ فِي
 هَذَا الصِّرَاعِ سَيَكُونُ مِنْ نَصِيبِ الْقَادِرِينَ عَلَى
 الْمَوْتِ فِي سَبِيلِهِ، الْمُسْتَعِدِّينَ لِتَذَلِّ الْأَرْوَاحِ
 رَخِيصَةً لِيَتِمَكَّنُوا مِنَ النَّصْرِ وَالْبَقَاءِ، أَمَّا الْخَصْمُ
 الْمَهْزُومُ الْمَقْهُورُ فَإِنَّ لَهُ إِلَّا الْمَوْتَ وَالْفَنَاءَ وَالزَّوَالَ !
 وَهَكَذَا لَمْ يَصِلْ إِلَى هَنْبِيعَلٍ مِنْ قَرطاجَة سِوَى عَدَدٍ
 قَلِيلٍ مِنَ الْفِيلَةِ وَبَعْضِ التَّعْزِيزَاتِ مِنَ الرِّجَالِ،
 وَلَكِنَّ الْقَائِدَ الْقَرطاجِيَّ الْعَظِيمَ حَافِظَ عَلَى مَا كَانَ
 لَدَيْهِ مِنْ قُوَّاتٍ، فَأَقَامَ فِي قَلْبِ إِيطَالِيَةِ خَمْسِ
 سَنَوَاتٍ أُخْرَى، وَالرُّومَانُ يَكْتَفُونَ بِالْمُنَاوَشَاتِ
 وَبِتَطْوِيقِ قُوَّاتِهِ مِنْ بَعِيدٍ، وَتَوَالَتْ عَلَيْهِ سِلْسِلَةٌ مِنْ
 الْخِيَّاتِ الْمُتَوَالِيَةِ: فَحَلِيفُهُ فِيلِبُّسُ الْخَامِسُ
 الْمَقْدُونِيُّ خَذَلَهُ، وَسَقَطَتْ سِيرَاقُوزَةُ الْمَنِيعَةِ
 (سَرَقُوسْطَةُ)، وَأَخُوهُ أَزْرُوبَعْلُ الَّذِي ظَلَّ مُحْتَفِظًا

باسبانية هبَّ لِئُصْرَتِهِ، فاجتازَ اللَّبَّ بعدَ تِسْعِ سنواتٍ من مُرورِ أخيه فيها، ولكنَّ الرُّومانَ تصدَّوا له قبلَ أن يَصِلَ بالتَّجْدَةِ إلى أخيه، وهَزَمُوهُ في شماليِّ إيطاليا، وحملوا رأسَهُ وألقَوْا به في مُعَسْكَرِ هنيعلٍ، وبذلك لم يَبْقَ لدى القائدِ القرطاجيِّ الكبيرِ أَمَلٌ في دَخْرِ رُوما، وتَقَشَّى في جَيْشِهِ الطاعونُ، وقسا عليه القَدَرُ، وفي هذه الظروفِ القاسيةِ رُزِقَتْ رُوما الرجلَ الذي قَدَّرَ لَهُ أَنْ يَكُونَ مُنْقَذَها . وهو بُولْيُوسُ شيبو الذي يُطْلَقُ عليه المؤرخونَ اسمَ «هَنيعلَ روما» وقد تمكَّنَ هذا القائدُ الرومانيُّ الباسلُ من كَسْبِ معارِكِهِ في إسبانية فاستولى على قرطاجنة ثُمَّ عبرَ إلى إفريقية، فباتت قرطاجُ نفسها في خَطرٍ، وأصبحَ أهلُها بعدَ هزيمةِ جيشِهِم أُمَمَ شيبويتلَهْفُونَ إلى عَوْدَةِ

بَطَلِ قَرطاجَة الأعظم هَنِيَعِلَ لِلدِّفاعِ عنها، وعقدَ
مَجْلِسَ الشُّيوخِ فيها جَلَسَاتٍ صَاحِبَةً، واتَّخَذَ قراراً
بِاسْتِدْعاءِ هَنِيَعِلَ، نُزولاً عِنْدَ رَغْبَةِ الشَّعْبِ لِانْقِاذِ
افْرِيقِيَّةَ مِنَ الاِحتلالِ الرُّومانيِّ، ووصلتِ الدَّعوةُ إلى
هَنِيَعِلَ: «عُدْ إلى افْرِيقِيَّةَ مع جُنُودِكَ جَمِيعاً،
وَأَسْرِعْ ما اسْتَطَعْتَ، إِنَّ قَرطاجَةَ في خَطرٍ!»

وبانتظار عودَةِ البَطَلِ المُتَقَيِّذِ كانَ على قَرطاجَةَ
أَنْ تَكسِبَ الوَقْتَ، بِالذُّخُولِ مع شِيبِيو في
مُفاوِضاتٍ لِلصُّلحِ، وَقَبْلَتِ الشُّروطَ الَّتِي قَدَّمَهَا القائِدُ
الرُّومانيُّ إِلَيْها، وأرسلتْ وفداً إلى روما يَطْلُبُ من
مَجْلِسِ شُيوخِها المُوافَقَةَ على الصُّلحِ، في حينَ كانَ
هَنِيَعِلُ يُبحِرُ عائداً إلى افْرِيقِيَّةَ بِأسْطُولِهِ الصَّغيرِ.

الباب الخامس

عوده البطلي إلى قَرْطَاجَة

وحركتة الإصلاحية

٢٠٣-١٩٢ ق. م

وصل هنيعل مع العائدين من رجاله
 القلائل إلى إفريقية في فصل الخريف عام
 ٢٠٣ ق. م. وأقام معسكراً يَتَمَضِيَّة الشتاء وانضمت
 إليه القوّات القرطاجيّة المحاربة، وانصرف القائد
 العظيم إلى تنظيم جيشه وإكمال عُدَّتِهِ الحربية،
 وقد أدركَ خَطَرَ الموقف، لافتقار الجيش إلى قُوَّة
 كافية من الفُرسَانِ، وكانت انتصارات هنيعل
 تعتمد دائماً على فُرسَانِهِ وقُدْرَاتِهِم القتالية، وكان
 التُّومِيدْيُون يُشكِّلُون أَكْثَرِيَّة أولئك الفُرسَانِ، أما الآن
 فقد انضمَّ الملك التُّومِيدْيي ماسينيسا إلى سيبو،
 بأربعة آلاف من الفُرسَانِ الأَشَاوِسِ، فَقَوِيَ بِهِم

جيشُ الرومانِ، وازدادتْ حاجةُ الجيشِ القرطاجيِّ إلى أمثالهم؛ وليَكُنِّي يدفعُ سيبو هنيبعلَ إلى القتالِ دونَ تَرَيْثُ أَقْدَمَ على قَطْعِ الأشجارِ وَحَرْقِ المحاصيلِ، فأرسلتْ قرطاجُ تستغيثُ بهنيبعلَ، مُتَخَوِّفَةً من المَجَاعَةِ، وطالبةٌ أن يُسْرِعَ بِضَرْبِ سيبو ليَكْفَ يَدَهُ عن التدميرِ ونَشْرِ الخرابِ، فأسْرَعَ هنيبعلُ لِلِقَاءِ خَصْمِهِ على مَقْرَبَةٍ من (زاما)، وأرسلَ إليه وَفْدًا يَعْرِضُ عليه أن يَتَقَابَلَا قبلَ المعركةِ الفاصِلَةِ، وقبلَ القائدُ الرومانيُّ ذلكَ، وَتَمَّتِ المُقابَلَةُ التاريخيَّةُ بينَ القائِدينِ وَجْهًا لَوَجْهِه، ولم يَتَمَّ التفاهُمُ بينهما على الصُّلحِ، فافترقا لِيَتَقَعَ معركةُ زاما في فجرِ اليومِ التالي، وكانتْ من أعظَمِ معاركِ التاريخِ القديمِ، وأطلقَ هنيبعلُ فيلَّتَه الثمانينَ صَفًّا واحدًا في الهُجُومِ، فأخذَ الرُّومانُ يَنْفُخُونَ في الأبواقِ

وَيَقْرَعُونَ الطُّبُولَ وَالصُّنُوجَ، فَأَجْفَلَتِ الْفَيْلَةُ، وَلَا
سِيَّما الوحشيةُ منها، وَأَرْتَدَّتْ عَلَى أَغْقابِها، وفي الوقتِ
نَفْسِه هَجَمَ فُرْسَانُ ماسينيسا النوميديون هُجُوماً صَاعِقاً
انكشفت أَمَامَهُ فُرْسَانُ قَرطاجَةِ، ودارتِ الدائِرَةُ على
جَيْشِ هَنبِيعَلٍ، كانتِ المِعرَكَةُ الوحيدةَ التي
خَسَرها في حَياتِهِ، وانسحبَ القائدُ القرطاجيُّ
مُتَفَهِّقِراً، ودُعِيَ إلى قَرطاجَةِ حيثُ قابلَ مجلسُ
الشيوخِ لأوّلِ مرَّةٍ في حَياتِهِ، وأعلنَ لَهُم رأيَهُ،
ناصِحاً بِطَلَبِ الصُّلْحِ، إذا كانتِ قَرطاجَةُ تُريدُ أَنْ
تَنْجُو مِنَ الدَّمارِ!

كانتِ شُرُوطُ الصُّلْحِ قاسيةً ومُذِلَّةً
لِقَرطاجَةِ: فَعَلِيها أَنْ تَتَخَلَّى عَنْ كُلِّ ما تَمْلِكُ في
أورْبَةِ، وتتنازَلْ عَنْ حَقِّها في إِعلانِ الحَرْبِ إِلا
بِإِذْنٍ مِنْ رَوما، وتَتَعَهَّدَ بِمُساعدَةِ الرُّومانِ بَرّاً

وَبَخْرًا، وَتُصَالِحَ الْمَلِكَ التُّومِيدِيَّ مَاسِينِيَسَا وَتَرُدَّ إِلَيْهِ
أَمْلَاكُهُ، وَتُسَلِّمَ جَمِيعَ الْعَبِيدِ الْهَارِبِينَ وَالْجُنُودِ
الْفَارِسِيِّينَ مِنَ الْجَيْشِ الرُّومَانِيِّ، وَتَدْفَعَ غَرَامَةً حَرْبِيَّةً
سَنَوِيَّةً كَبِيرَةً لِمُدَّةِ خَمْسِينَ عَامًا، وَتُسَلِّمَ لِرُومَا مِائَةَ
رَهْنَةٍ يَخْتَارُهَا شَيْبِيُّو، لِضَمَانِ تَنْفِيزِ الشُّرُوطِ!

لَقَدْ آتَى لِقَرْطَاجَةَ أَنَّ تَدْفَعُ ثَمَنَ غَبَاءِ شَيْوَحِهَا
وَامْتِنَاعِهِمْ عَنْ إِمْدَادِ بَطْلِهَا الزَّاتِجِ الْعَظِيمِ بِالْمَالِ
وَالْتَّجَدَاتِ، وَهُوَ عَلَى أَبْوَابِ رُومَا، وَمِنْ أَيْنَ
لِقَرْطَاجَةَ أَنَّ تَدْفَعَ الْغَرَامَةَ السَّنَوِيَّةَ الثَّقِيلَةَ كُلَّ عَامٍ،
وَحَزِينَةُ الدَّوْلَةِ فَارِغَةً، وَالشَّعْبُ يَشْعُرُ بِالْإِنْسِحَاقِ
أَمَامَ ذَلِكَ الْهَزِيمَةِ وَشُرُوطِهَا! كَانَتْ قَرْطَاجَةُ تَسِيرُ
نَحْوَ الْفَوْضَى، وَكَانَ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ مُنْقِذٍ، يَنْتَشِلُهَا
مِنْ أَيْدِي مُسْتَغْلِيهَا وَحُكَّامِهَا التَّجَارِ الْعَاجِزِينَ
الْأَغْيَاءَ.

وهكذا وَجَدَ هَنِيئَعْلُ نَفْسَهُ مَدْعُوًّا إِلَى خَوْضِ
غَمَارِ السِّيَاسَةِ، لِلْقِيَامِ بِالْإِصْلَاحَاتِ الضَّرُورِيَّةِ
لِتَطْهِيرِ الْإِدَارَةِ مِنَ الْفَسَادِ وَإِنْعَاشِ الْحَيَاةِ
الْاِقْتِصَادِيَّةِ الْمُتَرَدِّيةِ، وَإِنْقَاذِ الْوَطَنِ مِنَ الْفَوْضَى
وَالذَّمَارِ.

بعد مُرورِ سِتِّ سَنَوَاتٍ عَلَى مَعْرَكَةِ (زَامَا) رَسَّحَ
هَنْسِيْبَعْلُ نَفْسَهُ عَامَ ١٩٥ ق. م لِمَنْصِبِ
(الشُّوْفَط) أَي أَحَدِ رُئِيسِي الدَّوْلَةِ، فَفَازَ بِأَكْثَرِيَّةٍ
كَبِيرَةٍ، وَتَوَلَّى الْقَائِذَ الْعَسْكَرِيَّ مَسْئُولِيَّاتِهِ الْمَدْنِيَّةَ
الْجَدِيدَةَ لِيَنْصَرِفَ بِكُلِّ هِمَّةٍ إِلَى إِجْرَاءِ عَدَدٍ مِنَ
الْإِضْلَاحَاتِ الْإِدَارِيَّةِ وَالْإِقْتِصَادِيَّةِ: فَطَهَرَ السِّلْكَ
الْإِدَارِيَّ مِنَ الْفَسَادِ، وَعَمَلَ عَلَى سَنِّ قَوَانِينٍ تُجَرِّدُ
الشُّيُوخَ مِنْ حَصَانَتِهِمْ وَتَجْعَلُهُمْ خَاضِعِينَ لِلْأَنْظِمَةِ
وَالْقَوَانِينِ، وَقَصَرَ مُدَّةَ وَلايَةِ مَجْلِسِهِمْ عَلَى سَنَةٍ وَاحِدَةٍ،
وَحَظَرَ تَجْدِيدَ انْتِخَابِ رُئِيسِ سَابِقٍ، وَأَنْشَأَ دِيْوَانَ
تَفْتِيشٍ وَمُحَاسَبَةٍ، لِيَنْظِمَ الضَّرَائِبَ، وَضَبَطَ الْجَبَايَةَ

وَمَنْعِ الاختلاسِ، وبذلكَ تَمَكَّنَ من جَمْعِ الأموالِ
لِدَفْعِ الغَرامةِ السَنَوِيَّةِ ذُونِ حاجَةٍ إلى قَرْضِ ضَرَائِبَ
جَدِيدَةٍ، وأخذتِ الحَيَاةُ الاقْتِصَادِيَّةُ تَتَنَعَّشُ، وصَارَ
أَعْدَاءُ هَنِيْبَعْلَ يَزْدَادُونَ، وَكُلُّهُمْ مِنَ الْفَاسِدِينَ
وَالْمُرْتَشِينَ وذَوِي الْمَصَالِحِ الَّتِي حَالَ هَنِيْبَعْلُ دُونَ
اسْتِغْلَالِهِمْ إِيَّاهَا، وَرَاحَ هَؤُلَاءِ يَمَكُرُونَ وَيُدْشُونَ،
وَيُؤَالُونَ الْوَشَايَاتِ إِلَى مَجْلِسِ الشُّيُوخِ الرُّومَانِيِّ،
بِاتِّهَامِ هَنِيْبَعْلَ بِالْإِسْتِعْدَادِ لِلْحَرْبِ، وَإِقَامَةِ تَحَالُفٍ
مَعَ مَلِكِ سُورِيَّةِ أَنْطِيُوخُوسَ الثَّالِثِ لِلْقَضَاءِ عَلَى
الدَّوْلَةِ الرُّومَانِيَّةِ، وَكَانَ لِتِلْكَ الْوَشَايَاتِ أَثَرُهَا فِي
رُومَا، إِذْ كَانَتْ تَتَأَهَّبُ يَوْمَئِذٍ لِحَرْبِ أَنْطِيُوخُوسَ،
وَلَكِنْ (شِيبِيو) دَافَعَ عَنِ الْبَطْلِ الْقِرطَاجِيِّ وَفَنَّدَ
أَحْقَادَ الْوُشَاةِ، وَأَعْلَنَ لِمَجْلِسِ الشُّيُوخِ أَنَّهُ لَا يَلِيقُ
بِرُومَا وَكِرَامَتِهَا أَنْ تُزْهِقَ بَطْلًا كَبِيرًا لِتُرْضَى

أَحْقَادٌ وَوُشَاةٌ حَقِيرِينَ لَا ضَمَائِرَ لَهُمْ!

وَعَلَّمَ هَنِيئَعُلُ بِمَا يُدَبِّرُ لَهُ، وَأَدْرَكَ أَنَّ رُومًا لَنْ
يَطُولَ بِهَا الْوَقْتُ حَتَّى تَطْلُبَ تَسْلِيمَهُ إِلَيْهَا، وَبَلَغَ بِهِ
الْيَأْسُ أَمَامَ غَبَاءِ التَّجَارِ مِنْ شُيُوخِ قَرطاجَة، وَضِيقِ
أَفْقِهِمْ وَاسْتِهَانَتِهِمْ بِالْمَصْلَحَةِ الْوَطْنِيَّةِ فِي سَبِيلِ
مَصَالِحِهِمْ الْخَاصَّةِ، أَنَّ عَزَمَ عَلَى تَرْكِ قَرطاجَة
لِقَدَرِهَا الْبَائِسِ الْحَزِينِ.

خاتمة المطاف

نهاية المأساة

١٩٢-١٨٣ ق. م

كَانَ خُصُومُ هَنِيْبَعْلَ السِّيَاسِيُونِ فِي قَرطَاجَة
رِجَالاً ضَيِّقِي الْأَقْق، يَحْصُدُون رِجَالاً عِبْقَرِيّاً،
وَيَتَأَمَّرُونَ عَلَيْهِ لِلتَّخْلُصِ مِنْهُ، فَخَسِرَتْ قَرطَاجَة
بِذَلِكَ بَطْلَهَا وَرِجُلَ إِصْلَاحِهَا وَإِنْقَازِهَا، إِذْ أُنْجَرَ
خِيفَةً إِلَى سُورِيَّةَ، لَاجِئاً إِلَى مَلِكِهَا أَنْطِيُوخُوسَ،
الَّذِي اسْتَقْبَلَ ضَيْفَهُ الْعَظِيمَ بِالْعِنَاقِ الْحَارِّ وَالتَّحْيِي
الْحَمَاسِيِّ، وَطَلَبَ مَشُورَتَهُ فِي التَّصَدِّي لِرُومَا
وَحَرْبِهَا، وَقَدْ أَصِيبَ الرُّومَانُ بِصَدْمَةٍ قَاسِيَةٍ عِنْدَمَا

عَلِمُوا بِالتَّجَاءِ هَنِيْبَعْلَ إِلَى عَدُوِّهِمْ مَلِكِ سُورِيَّةَ،
صَاحِبِ الْإِمكَانَاتِ الْحَرْبِيَّةِ الْهَائِلَةِ!

وَأَنْدَلَعَتِ الْحَرْبُ بَيْنَ أَنْطِيُوخُوسَ وَالرُّومَانِ عَامَ
١٩٢ ق. م وَكَانَ هَنِيْبَعْلُ يُحَاوِلُ إِقْنَاعَ مُضَيِّفِهِ
بِخُطْبِهِ الْحَرْبِيَّةِ. دُونَ جَدُوى، وَخَانَ الْحِطُّ مَلِكَ
سُورِيَّةَ، فَقَدْ ذُمَّرَ أَسْطُولُهُ، وَهَزِمَ جَيْشُهُ، وَانْتَصَرَ
الرُّومَانُ عَلَيْهِ عَامَ ١٨٨ ق. م، فَطَلَبَ الصُّلْحَ مِنْهُمْ،
وَخَشِيَ هَنِيْبَعْلُ أَنْ يُطَالِبَهُ الْمُنْتَصِرُونَ بِتَسْلِيمِهِ لَهُمْ،
فَعَمَدَ إِلَى الْفِرَارِ عَلَى ظَهْرِ سَفِينَةٍ فِي جُنْحِ اللَّيْلِ،
لَا جُنَأً إِلَى مَلِكِ بِيْثِنِيَا، وَهِيَ دَوْلَةٌ أُخْرَى كَانَتْ فِي
حَرْبٍ مَعَ رُومَا، فَاسْتَقْبَلَهُ الْمَلِكُ وَاتَّخَذَهُ مُسْتَشَاراً
لَهُ، عَلَى الصَّعِيدَيْنِ الْعَسْكَرِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ!

وَلَكِنْ رُومَا اكْتَشَفَتْ مَقَرَّ عَدُوِّهَا الْأَلَدِّ،
فَأَرْسَلَتْ بَعْثَةً تُطَالِبُ بِتَسْلِيمِهِ إِلَيْهَا، وَلَمْ يَكُنْ مَلِكُ

بيثينيا قادراً على حمايته، وعندما أحاط به الجنود
الرومانيون ليُقبضوا عليه، تناول سماً كان يحتفظ به
لمثل تلك الساعة في خاتمه، ووضع بنفسه نهاية
لحياته عام ١٨٣ ق. م وبذلك انتهت مأساة بطل
عَبْقَرِي عَظِيم، تَرَكَ في التاريخ الحربي صفحات
مجيدة خَلَّدَتْ ذِكْرَهُ، وَجَعَلَتْ منه واحداً من أقدادِ
الأعلامِ القادةِ المُبَرِّزينِ.

المحتوى

٥	مقدمة
٧	الباب الأول
		قرطاجة قبل ميلاد بطلها هنيبل
		٨١٤-٢٤٦ ق. م
٣١	الباب الثاني
		طفولة هنيبل ونشأته العسكرية وتكوينه
		٢٤٦-٢٢١ ق. م
٦١	الباب الثالث
		القائد القرطاجي الشاب يستعد لحملة الثأر
		٢٢١-٢١٩ ق. م
٨١	الباب الرابع
		هنيبل فاتح أوربة في حملته الكبرى
		٢١٩-٢٠٤ ق. م
١٠٥	الباب الخامس
		عودة البطل إلى قرطاجة وحركته الإصلاحية
		٢٠٣-١٩٢ ق. م
١١٥	خاتمة المطاف
		نهاية المأساة
		١٩٢-١٨٣ ق. م

سلسلة في حصار علفان نمر على يد مؤامرة
الأعلام بترزوي من الشرق والغرب



- ١- الاسكندر الأكبر
- ٢- هنيبعل
- ٣- أبو العلاء المعري
- ٤- ابن بطوطة
- ٥- ابن خلدون
- ٦- كريستوف كولومبوس
- ٧- وليام شكسبير
- ٨- نابليون بونابرت
- ٩- ليون تولستوي
- ١٠- المهاتما غاندي

سلسلة صغيرة تغنيك
عن مكتبة كبيرة

دار الشرق العربي
بلاط، شارع سورية، طابق دارويش
دمشق (٦٩١٨ - ١١)